محرز الحسيني

الصراع الفكري
بين المادية والروحية

تقـــديم

السيد/ كمال الدين رفعت
وزير العمل

النـــاشر

دار الوراق للطباعة والنشر السيد خليفة
٤٤ صلاح الدين ت ٢١١٣٢٠

مقـــــدمة

السيد/كمال الدين رفعت

وزير العمـــل

لم أكن أتوقع عندما قلبت أصول هذا الكتاب بين يدى أننى سوف أقبل على قراءة صحائفه بذلك القدر الكبير من الحرص والاهتمام .

ولكننى عندما تأملت فى العنـــوان الذى اختاره الكاتب لذلك البحث ، وعندما تدبرت الموضوعات التى يعالجها وجدت نفسى وقد شغفت بقراءته بتعمق وحرص شديدين .

ولقد كان أول ما استدعى منى التفكير والتأمل وبعث فى نفسى خواطر كثيرة هو العبارة التى تخيرها الكاتب عنوانا لهذا البحث الجاد . فمنذ أن كان الإنسان . . . ومنذ أن كان له عقل يدبر به شئون حياته وهو يفـكر فى ماهية وجوده . . . يفكر فى الأصل الذى يعود إليه بجميع مظاهر وجوده . . ولقد كان أكثر شيء جدلا بالنسبة للفكر الانسانى هو مظهـــر ذلك الوجود من ناحيتيه المادية وفوق المادية .

حار الانسان فى معـرفة الأسباب كما حار فى تعليل المسببات . . . لجـأ إلى الخيال فلم يسعفه الخيال . . ثم لجأ إلى الخرافات فلم تغنه من الحق شيئا .

بحث الانسان وراء حقيقة وجوده المـــادى وتزاحمت فى رأسه الأسئلة والاستفهامات ولكنه ظل أزمانـا طويلة وهو يتخبط فى بحور من الأوهـــام

والخرافات حتى شاء له القدر أن يصل إلى نتائج يرضى بها عقله وتسكن اليها نفسه . . . استيقن الانسان ان مظهر وجوده المادى يرجع إلى عناصر معينة تعود بأصلها هى الأخرى إلى عناصر الأرض التى أنبتته وأنه كان النتاج النهائى لسلالة ترجع بجذورها وحلقاتها الأولى إلى الماء والتراب وتنتهى فى تطورها بأعظم كائن على وجه الأرض ، كائن فذ عجيب له من الملكات والقدرات مايحار هو نفسه فى تعليل أسبابها .

ثم ينظر الانسان بعد ذلك إلى مظهر وجوده غير المادى أو فوق المادى فيجد فى نفسه سرا رهيبا حول هذه المادة الصماء إلى ذلك التكوين العجيب. . . السر الذى لايزال يحار فى معرفة أصوله وقواعده ولايزال عاجزا عن الكشف عن أبعاده واغواره السحيقة .

لاذ الانسان فى محاولاته لتفهم ذلك المظهر فوق المادى كما سبق أن لاذ فى محاولاته لتفهم أسرار المظهر المادى بالخيال فلم يسعفه الخيال .. لجأ إلى الأوهام والخرافات فلم ترض عنها نزعاته العقلية وملكاته الفكرية . ومضى على الإنسان حين من الدهر تتخطفه الأوهام وتتنازعه الخرافات وأبواب الحقيقة موصدة فى وجهه لايجد لها من نافذة يطل منها على الحقيقة .

عندما وصل الانسان إلى بعض النتائج التى تفسر له مظاهر وجوده المادى واستطاع أن يتعرف على عناصر تكوينه الحيوانى ثم عثر على القوانين والسنن التى كانت الأساس فى عملية بناء جسده المادى فى الوقت الذى لم يستطع بعلمه المادى المحسوس أن يصل إلى مثل تلك النتائج تفسيرا لمظهر وجوده فوق المادى أنكر فريق من الناس أن فى الانسان تلك الطبيعة الازدواجية وأنه مكون من جسد مادى وشىء آخر فوق مادى وكان ذلك راجعا إلى عجزه عن الوصول إلى نتائج علمية توضح له ماهية ذلك الوجود فوق المادى وتبين له أصوله وأبعاده وتظهر له أغواره وأعماقه. وهو فوق ذلك استطاع ان يعرف بتجربته أن مصير

ذلك المظهر المادى إلى فنـــاء وعودة إلى الأرض التى نبت منها نباتا وعجز فى نفس الوقت عن معرفة مصيرذلك المظهر فوق المادى بعد زوال الجسد فانكر ذلك الفريق من الناس ذلك المظهر واعتنق المذهب المادى الذى ينكر على الانسان تلك الطبيعة الازدواجية .

ان كل مظاهر الوجود البشرى انما تستمد من أصل واحـد هو الانسان نفسه وليست من هذه المظـاهر ماينزل عن حد الضرورة ليكون أحـدها أكثر ضرورة من غيره وليس منها ماهو أقرب إلى الكماليات عن الحاجيات فان تلك المظاهر تنزل كلها منزلة واحدة وهى علاوة على ذلك فانها فى نفس الدرجة من الحقيقة فلايمكن أن نقول ان المظهر المادى حقيقة أظهر من حقيقة المظهر فوق المادى لأننا استطعنا أن نصل بالنسبة له باسلوبنا العلمى المادى إلى نتائج وان المظهر فوق المادى انما هى حقيقة تلى الحقيقة الأولى فى المرتبة الأولى والأهمية كما لايجوز أن نقول بعكس ذلك لأن كلا المظهرين إنما يكونان الانسان .

ولما كانت مظاهر الوجود البشرى تنبع كلها من أصل واحد هو الانسان نفسه فانه لايمكن أن نتصور أن يكون هنالك فيما بينها تجالد وعناد او تصارع وعداء . لأن الشىء الواحد لاينتج عنه مظهران متضادان وإلا كان الانسان عبارة عن مجموعة من المتناقضات .

وإذا أخذنـا بعض صفات الكائن البشرى مثلا نضربه للتدليل على صحة ما نقول فاننا نجـد أن العلم صفة عقلية أصبحت من ضرورات المجتمع وان كان العقل وهو نبعها الفياض صفة من الصفات الأصلية فى حياة الانسان الاجتماعية . . . وكذلك الدين فهـو صفة تستمد مما فوق العقليـة البشرية ليسد فراغا فى الاجتماع لايسده العلم ، وبين العلم والدين فجوة لاتسدها إلا الفلسفة . . فهـذه الصفات الثلاثة . . . صفة أن الانسان يعلم وصفة أنه يتدين وصفـة أنه يتفلسف ليوفق بين طرفى العقل وما فوق العقل تعتبر كلها صفات فطـرية فى الانسان

أصبحت بطبيعتها ضرورة اجتماعية ولا يمكن أن يكون بينها شيء من العداء أو الصراع لأنها مستمدة كلها من شيء واحد هو الطبيعة البشرية ذاتها .

وإذا كان هذا هكذا فكيف نتصور انه يوجد صراع بين المظهرين الاساسيين والعنصرين الكليين اللذين يتكون منها الانسان : عنصر المادة أو مظهر الوجود المادي وعنصر الروح أو مظهر الوجود فوق المادي . وإذا قلنا بذلك نكون قد وقعنا في خطأ كبير ونكون قد اقررنا أن الانسان الذي خلق في أحسن تقويم وأسمى مراتب الدقة هو عبارة عن هيكل من الفوضى المتحركة .

لذلك كله كان أول ما استرعى مني التفكير والتأمل وبعث في نفسي الخواطر هو العبارة التي أختارها الكاتب عنوانا لهذا البحث . . . الصراع الفكري بين الماديه والروحية . . . لان ذلك الصراع لا يمكن تصوره الا على أساس أنه من ابتداع العقل البشري والفكر الانساني عندما لجأ الانسان إلى نفسه محاولا تعليل أسباب وجوده ومظاهر ذلك الوجود وغايات الحياة البشرية ، وعندما حاول كذلك أن يبحث لنفسه عن النظم والقوانين التي تعينه على الحياة فتقضي على أسباب شقاواته وتدله على طريق سعادته .

ومحاولة الكاتب في هذا البحث القيم الوصول إلى أحسن القوانين واكمل النظم البشرية التي تكفل سعادة المجتمع البشري أنما هي محاولة تسير مع ركب الفكر الانساني الذي يسعى إلى إيجاد أصلح الأساليب وأدق النظم التي تكفل له حياة أنسانية كريمة . . . قوانين ونظم تؤمن بالطبيعة الإزدواجية في الكائن البشري فتقوده إلى رفاهية الجسد وسعادة الروح . . . عسى أن يجد القارىء في موضوع الكتاب ما وجدته من قيمة فكرية وفائدة موضوعية وحسن عرض وسلامة منطق وحجة .

مقدمة المؤلف

الانسان كواقع مادى له أبعاد وحدود يشغل بها حيزاً من هذا الكون المترامى وهناك فى اعماقه كثير من الأحاسيس والمشاعر التى تكون فيه الجانب الحسى والعاطفى والغريزى وتؤثر فى تفكيره وتشكل من سلوكه وتدفعه لانتهاج مناهج معينة قد تكون تعبيرا عن دوافع داخلية أو انعكاسا لمتطلبات معينة تضطرب فى نفسه وتدفعه لاشباعها أو تحقيقها .

فمنذ أن وجد الانسان فى هذا العالم وهو فى محاولات مستمرة لتفهم هذا الوجود الذى يحويه وهذا العالم الذى يثير دهشته بتباين محتوياته وتغاير ظواهره وغرابة أطواره وغموض أسراره فاندفع بطبيعته نهما يلتمس المعرفة واليقين ليصل نحو استخلاص نتائج لها تساهم فى تحقيق وجوده واستمراره فى مسايرة تلك الطبيعة الغامضة .

وبالتمعن فى هذا السلوك الانسانى الهادف للمعرفة واليقين والبحث والتنقيب نجد أنه فى محاولات مستمرة أما من أجل المحافظة على هذا الوجود ، وأما من أجل تطويره والارتقاء بامكانياته لكى يوفر له حياة متكاملة مستقرة تكللها السعادة والرفاهية .

وما أن كوّن الانسان تلك القيم والمفاهيم المعبرة عن السعادة والكمال التى تصبوا اليها نفسه حتى ابتدأت مراحل صراعه وشقائه ، تارة صراعه مع نفسه وغرائزه وتارة صراعه مع أخيه وكلها فترات عصيبة مرت بها الانسانية وعاشت

فى ألامها وأحزانها حتى جذبت اليها عقول الفلاسفة والمفكرين فى محاولات كثيرة من أجل القضاء على هذا الصراع وايجاد التلاقى بين الفئات البشرية بتباين غرائزها وميولها ومن أجل الحفاظ على هـــذا الوجود الانسانى فى حالة من الاستقرار والهدوء والحب .

وإن كان هـذا الفكر ابتدأ فى محاولات هى أقرب من الخيال لاتخرج عن حدود العقل المفـكر ، وتعدت حواجزه وخرجت فى صورة دعـوة وتمجيـد لتلك الحياة ، فقد كانت هناك محاولات أخرى تعدت الوجود الخيالى إلى أبعاد مادية فيها من القصور من حيث التنفيذ ممـا جعل دعوتها تتشتت مـع مر السنين الا أن كلا من الدعوتين الخيالية والمادية كان لهما عظيم الأثر من حيث الارتقاء بالفكر والسلوك الانسانى بصفة عامة وخلق استعداد لتقبل الأفـكار الأكثر استجابة مع النفس البشرية وعواطفها ومتطلباتها .

وعلى صفحات هـذا الكتاب سنحاول بشىء من الإيجاز أن نبسط تلك الظواهر التى تعبر عن مراحل هذا الصراع ثم ننتهى ببحثنا بالتعرض للاشتراكية العربية باعتبارها منهجا يستهدف الانسان ويمجد وجوده ويحترم غرائزه ويوفق بين سلوكه ويقوده إلى حياة كريمة

ونسأل الله التوفيق . ، ، ،

م . أول بحرى

محرز محمود الحسينى

مظاهر الوجود الانسانى

ظل الانسان يكافح ويسعى جاهدا فى محاولات مستمرة نحو اخضاع قوى الطبيعة وتسخيرها من أجل استكمال مظاهر وجوده وتحقيق سعادته وكماله لكى يضفى على حياته مستلزمات القوة والنظام والاستقرار .

وهذا الطموح إلى اجتياز حدود الامكان ، وهذا النزوع إلى استكشاف وتسخير ماوراء الواقع الملموس يعود على الانسان بالمتاعب والصعاب ، ويعرضه لألوان متباينة للصراع تارة مع الطبيعة وأخرى مع نفسه وهو بينهما حائر يتخبط ويصطدم بالواقع الأليم .

وأى معنى للحياة لايرفرف فى سمائها مثل عليا وقيم سامية اخلاقية يهتدى بها الانسان فى واقعه المضطرب وينظم سلوكه وتضىء له جوانب طريقه المظلم وتصبح له نبراسا يهديه إلى مايحقق وجوده من خلال السلوك الانسانى عامة .

ومما لاشك فيه أن مظاهر الوجود الانسانى ماهى الا تلك الدلائل التى تشير إلى أسلوب الفئات البشرية فى الحياة والمناهج التى تسير على منوالها من أجل تمكين الانسان من تحديد مكانه فى هذا الوجود وموقفه ازاء أوضاع الحياة المتباينة بصورها وأفكارها ومذاهبها وذلك من حيث ايجابية سلوكه أو سلبيته .

ومنذ الخليقة الأولى والانسان فى صراع دائب وتفكير عميق ومحاولات مستمرة من أجل استنباط نتائج معينة واستدلالات خاصة لتطورات متباينة

المجالات والصور .

فالوجود الانسانى من حيث المظاهر التى تشكله وتعطيه الصورة المادية والروحية تتجه بصفة مستمرة نحو التطور الجزئى والكلي، والتاريخ البشرى مملوء بظواهر متعددة وآثار بالغة تشير بمضمونها إلى هذا التطور وتؤكد حقيقة واضحة من حيث انقراض كثير من الماديات والمخلوقات التى صاحبت هذا الوجود لعدم تمكنها من مسايرة هذا التطور والتوافق مع مستلزماته والخضوع لقوانينه الحتمية من حيث التطور والارتقاء .

والسجل التاريخى للبشرية على مر السنين والقرون يحتوى على استدلالات للرقى البشري والتطور الطبيعى ، فالانسان عبر تلك السنين والمراحل يسخر عقله واحساساته من أجل تحقيق ذاته واثبات وجوده وقدرته على مسايرة هذا التطور الحتمى الطبيعى ويمر خلال تجارب متعددة لالشىء إلا لتعليل ظواهره والمضمون الحقيقى لذاته البشرية .

وبالاسترسال فى بحث هذا التطور وبالتمعن فى مكنونه نجد أنه يستند على أسس طبيعية ومستلزمات ضرورية ، بل أكثر من هذا يكون التطور هو أمر حتمى ومفروض علينا ومن يقف أمامه ويتعرض له اما أن يلحق به الجمود والسلبية واما أن ينتهى إلى ما انتهت إليه تلك المخلوقات الأولى التى آلت إلى الانقراض والفناء على أثر اخفاقها فى متابعة سنة هذا التطور وتكييف وجودها لتلائم تلك الحياة المتجددة والمتطورة بصفة دائمة.

وبالتمعن فى الوجود الانسانى وتعليل ظواهره المتعددة بمنطق فلسفى نجد أن هذا قد يؤدى بنا إلى التطلع والسعى وراء المعرفة الحقة وكشف كل ماهو غامض مستتر ثم المحاولة لربط مابين ظواهره المختلفة حتى تتحقق لنا صورة متكاملة شفافة واضحة وتتبلور معالمها لتسهل على العقول تداركها ويتسنى للانسان الاستجابة لقوانينها والتفاعل معها بصورة ايجابية .

فالانسان فى صراع ونضال مستمر يسعى جاهدا لاجتياز طرق شائكة ووعرة تحفها المتاعب وتحيط بها الصعاب وتعترضها العقبات ، وغاية تلك الجهود وهذا العنـــاء هى اصرارة للمحافظة على وجوده ولضمان استمراره بالصورة التى تتلاءم واستعداداته وميوله ومطالبه . . . .

ثم ماذا حدث عقب ذلك ؟ ؟ ما لبثت تلك المعالم الوجود الانسانى أن وضحت وتكشفت له واطمأن إلى ثبات حقه فى الحياة حتى أخذت تتجول فى أعماقه تساءلات فتحرف به عن طريق الاستقرار والهدوء والقنوع إلى طريق الألم والصراع النفسى والاضطراب الوجدانى . . . . أخذ يتساءل ويبحث عن وجوده الذاتى ، والوسائل التى من شأنها السمو بمظاهر وجوده . . ثم ما لبثت تساءلات أخرى تضطرب فى أعماقه بالتالى ، ماذا يعنى وجوده وما هو السر من ورائه . . . . ماهى المصادر التى تنبثق على أثرها ما يولد فى نفسه الحزن والشقاء والألم — ماهو مضمون الخير والشر ماهى الوسائل التى تحرره من تلك الآلام وتقوده إلى آفاق نقاء النفس وشفاء الجسد . وأخيراً ماهى المعايير التى يستند اليها فى معايرة سعادته وجعلها غاية يسعى اليها وينشدهـا من خلال وجوده .

تلك الأسئلة طالما رددتها الانسانية حتى تخصص لها الفلاسفة والمفكرون على مر السنين والأجيال لكى يتمكنوا من الوصول إلى مكنونها وعلاتها وأن يهتدوا إلى السبل التى تقودهم إلى خلق تلك المفاهيم وايجاد الحـــلول التى تشفى النفوس أمام تلك التساءلات وتمكن الانسانية عامة من أن تحقق وجودها الخالد وتبعث الأطمئنان والاستقرار فى النفوس المضطربة .

وتعددت تبعا لذلك مناهج التفكير للوصول إلى معرفة الحقيقة ، خاضتهـا البشرية فى محاولات للتقرب من متطلباتها واحتياجاتها المادية والروحية ولكى تعبر من خلالها عن حقيقة خلجاتها والعوامل التى تؤثر فى وجودها العــامة

والخاصة ، فتارة تسمو إلى أبعاد المثالية والخيالية ثم تصدم بحقائق لاتفسير لها فتحاول أن تتسلل نحوها مرة أخرى باساليب هى أقرب للواقع من الخيال . . منهج يعتمد على الحقائق فى هيكل فروض عقلية ونظرية نابعة من وراء العقل ثم يهتدى إلى المنهج العلمى النابع من وراء التجربة والحوادث المتعاقبة التى تقوده إلى حقيقة الوجود الانسانى .

وقد أخذ الأنسان بعد ذلك يبحث من وراء مناهج التفكير التى هى فى حد ذاتها عبارة عن محاولات تنتهج من أجل ازالة الغموض الذى يلابس مفهوم الظواهر والآراء المتنوعة والمبادىء والنظم والأهداف المتباينة فى أذهان الفئات البشرية ، كما وانها تلقى الضوء الذى ينير الطريق إلى المعرفة بمجالاتها المختلفة التى تتصل بحياة الانسان فى كل مكان وزمان .

ومن ثم فمناهج التفكير فى مضمونها عن تلك النزعة الانسانية من حيث تطلعها نحو الكشف عن الحقائق بصرف النظر عما يحتمل من آثار تترتب على كشفها سواء من حيث تحقيق مطالب الحياة العملية أو مجرد اشباع لمقتضيات الحياه الروحية ، أى أنها التماس للمعرفة غايتها الكشف عن الاستدلالات التى تفسرها وتؤكد وجودها .

ومنهجها يتدرج إلى ثلاثة اركان :

أ — مناهج مثالية

ب — مناهج نظرية

ج — مناهج علمية (تحليلية)

وكلها فى حد ذاتها عبارة عن مسميات اصطلاحية الغاية منها الاستدلال على كل منهج بمدلوله ومدى ارتباطه بالواقع الانسانى ومطلباته الأساسية .

أ ـ المنهج المثالى :

وهو الذى اصطلح على تضمينه كافة الأفكار أو الأعمال أو العمليات التى

يستهدف صاحبها تقديم حل أو تصوير لقضية من قضايا المجتمعات .

وينبثق هذا التفكير اثر احاطة المفكر بظروف معينة يتأثر بها وتتلاعب بعواطفه وتحرك مشاعره فيحاول أن يتصور حلولا متعددة تبدأ بأن يضع لها هيكلا فى مفهومه الذاتى النابع من عقيدته الذاتية ووفقا لوجهة نظره من حيث الأبعاد والمدى الذى يجب أن تكون عليه تلك الأوضاع والظروف .

وعليه فلايبدأ الفيلسوف من واقع التجربة وانما بمدى تأثره العاطفى البحت الذى يولد فى نفسه إحساسا بأن هذا المنهج هو الحل المثالى الذى يجب أن تنتهجه تلك الجموع وبالتالى نستدل على انه ليس هناك أى نظام مثالى أومنهج للتفكير يعد متكاملا لأنه ينبع من داخل الذات الفردية ويتخذ وضعه المثالى من وجهة نظر المفكر لحسب وبناء على مدى تأثر عواطفه ومدى ارتباطه وجدانيا بالبيئة الحاوية له .

ومن ثم فلايخفى ان هذا النمط من التفكير لايهتم بالمدى الذى يستجيب به للغرائز الانسانيه المتباينة ومتطلباتها المتضاربة وبالتالى على مدى قدرته لخلق التفاعل والاستقرار بين الفئات البشرية فكل هذه المسائل لايضعها المفكر فى اعتباره وانما يقدم تلك الحلول التى تأتى على هذا النمط ، خيالية بحتة غير قادرة على الصمود أمام الصراع الإنسانى بكونها بمنأى عن الواقع .

ب ـ المنهج النظرى :

وهو المنهج المعبر عن التفكير بالعمليات العقلية التى يقصد بها الكشف عن ظاهرة معينة ، وتبدأ من فرض عقلى بحت ، يقتنع بصحته باعتباره يمثل الحقيقة وعن طريق الانتقال من فرض إلى فرض يمكنه البرهنة بصحة هذا المنطوق.

وعليه فهذا المنهج لم يبدأ من الواقع وإنما يبدأ بمنطوق لنظرية معينة فى مجال الحقيقة وبفكرة من المجال المحسوس ويستتبع ذلك فروض تعقبها أخرى تعتمد على الطريقة النظرية والرسومات حتى تنتهى إلى صياغة برهان ثابت لها ،

وتكون مدى صحة هذا الفرض ومدى تمثيله عن طريق مجموعة من الفـروض العقلية البحتة ثم الانتقال من فرض عقلى لآخر إلى أن يصل إلى الاستدلالات بصحة البرهان ويجعل منه منطوقا للنظرية .

ج ـ المنهج العلمى :

وفيه يرتكز المفكر لاستخلاص نظـرياته وأفكاره من خلال احتكاكه بواقع التجربة واستنتاجاته من خلال المشاهدات والحوادث .

وهذا المنهج فى التفكير هو فى الغـالب مايجد استجابة من قبل الفئـات البشرية حيث انها بصفة لاشعورية تنجذب نحـو مايثير فى نفوسها من غرائز وميول متطلعة ومعرفة بمكنون الأمور وكشف كل ماهو غامض منها والوقوف على حقائق الموجودات والظواهر المعقـدة وذلك عن طريق تتبع ظواهرها المتغـايرة .

* * *

وهكذا بعد أن استدللنا على مناهج التفكير السابقة الذكر نجد أننا فى الواقع أمام ثلاثة مناهج لايمكن أن نحد بينها ثغرات أو حدود ، وانما كلاها يرتبط بالآخر بعلاقة أو أكثر :

ولو تتبعنا المنهج المثالى من حيث كونه يعـبر عن أعلا مراتب التفكير وأكثرها كمالا وتنسيقا لوجدنا استجابة له وتفاعلا معه حتى ولو بصورة نظرية بعيدة عن الواقع إلا أنها ستترك بعض الآثار من حيث تنمية احساسات الانسان والارتقاء بمشاعره ووجدانه والوصول بها إلى آفاق تمكنه من تقييم كل ماهو كامل متناسق .

وإذا ماانتقلنا إلى المنهج النظرى نجد انه يقود العقل الإنسانى ويهديه إلى أسس المعرفة الصحيحة المتقـدمة حتى وأن سلك المنهـج العملى واستند على

التجارب والمشاهدات بحثا وراء هذا المنطوق وأثبات صحته فقد يصل إلى أسمى الغايات وأنبلها .

وهكذا فاذا ماجعلت الإنسانية مراحل الكمال غاية تصبو إليها النفوس وتوجه نحوها الطاقات والقدرات فان اخفقت الأنسانية فى الوصول اليها فانها ولاشك ستقودها إلى درجات قريبة منها .

وهذا السلوك الفكرى التجريبي لايكون بالطبع قاصرا على ظاهرة معينة من ظواهر الوجود البشرى وإنما يمكن اتباعه عند تقييم كافة مظاهر الوجود الانسانى .

فالانسان موجود وهذه الحقيقة لايستطيع العقل البشرى أن يتنكر لها أو يقلل منها وهذا الوجود من خلال اطار الفكر البشرى يتمثل فى صورتين احدهما لها الواقع المادى المحسوس والأخرى لها واقع روحى والذى يمكن أن يتوصل له الانسان عن طريق استنباطات معينة من خلال وجوده وكيانه وذاته .

ومن حيث الجانب المادى فهناك عدة حواس تربط مابين الوجود وانعكاس الظواهر الطبيعية والمادية المحيطة به - فاذا ماكان هناك أى احتكاك بينهما تولدت عدة انفعالات متباينة محسوسة تنتقل جميعها وبالتالى إلى مركز التعقل والإدراك والتفهم فى الجسم ، ليعيد صياغتها وتصويرها إلى مظاهر مادية بيلوجية يمكن أن ينفعل بها هذا الكائن المادى وتنعكس آثارها بالتالى أيضا بسلوك خاص له مميزاته ومعالمه بحيث يصبح لكل تأثير مادى سلوك معين يعبر عنه بشكل ما .

فالانسان من حيث وجوده الذاتى يعيش فى كون غريب لانهائى إذا ماتوصل لأبعاد حقيقته المعينة اتضحت له أبعاد أخرى مترامية لحقائق يعجز عن الوصول إلى مكنونها بسهولة فاما ان يأخذها على علتها وإما أن يقف على تفسير

جزئى لها لا يشفى محتواه كل انفعالاته وتساءلاته التى تضطرب فى أعماقه ـ واما ان يكتفى ويستسلم للانعكاسات المختلفة التى يتأثر بها تلقائيا عند احتكاكه بظاهرة من ظواهرها المادية .

اما الجانب الروحى فى الانسان فله طبيعته الخاصة حيث انه يستند على استعدادات فطرية ومكونات عضوية وقد تكون استجابته شعورية ولا شعورية من حيث مدى تأثره بتلك الظواهر التى تحيط به ، وكذلك على مدى تأثره بحاسة الإدراك العقلى والأبعاد التى يتوصل بها إلى استنباط تعليلات مباشرة لها .

ومن هنا يتضح لنا ظاهرة من حيث كون العقل هو المحرك الأول الذى يثير كلا من الجانبين المادى والروحى وكسبيل للمعرفة ووسيلة يعبر بها الانسان عن قلقه الدائم من حيث تلك التساءلات والانفعالات التى تجول فى أعماقه منذ الخليقة حتى يومنا هذا .

وبالتحقق فى تلك الظاهرة نجد أنها قد توحى لنا بمعان كثيرة وذلك انه كلما أرتقى العقل البشرى وتفتحت آفاقه وازدادت معارفه كلما تباعدت حدود المعرفة وازدادت تطلعات ومجالات بحوثه ، وهذا مايؤدى إلى ازدياد شعور الأنسان بالقصور والألم وازدياد اضطراباته وانفعالاته النفسية حتى يغدو انسانا تائها لا يجد لأفكاره مستقرا ولا لنزعاته هاديا أو منتهى .

ومن هنا ابتدأ الأنسان فى وضع مفاهيم وغايات يسلك نحوها باحساساته ويوجه سلوكه نحوها لعله يهتدى للوصول اليها والأحساس بها ! وهكذا أخذت البشرية فى اثبات وجودها عن طريق بعض القيم والمفاهيم والمعايير التى تعبر فى مضمونها عن ذاتها وتنبثق عن الكيان الأنسانى ، وقد تتفاوت تلك القيم فيما بينها تبعا لمدى ارتباطها بحياته ووجوده الأنسانى ومصالحه العامة والخاصة .

ومما لاشك فيه أن المجتمعات الأنسانية قد تتفاوت فيما بينها تبعا لما تعلو فى

سماتها من قيم ومفاهيم وتبعا لمدى تفسيرها لها ومدى التفاعل معها والأستجابة لبنودها وحقائقها وكذلك عما إذا كانت تلك القيم والمفاهيم تتعلق بالجانب الروحى أو المادى للانسانية عامة .

ومن خلال تلك الأحاسيس التى صارت، تجول فى أعماق البشرية وتشيع فى حياتها نوعا من القلق سواء كان فى نطاق الوجود أو نحو ابعاد المستقبل فصار يتساءل عن غاية هـــذا الوجود ومن الآفاق التى يمكن ان يتوصل اليها، يؤثر فيها ويتأثر بمظاهرها فأخذ بالتالى يستدل على تلك المظاهر من خلال عمله وحركته وتفكيره وفقا لأستعداداته الفطـــرية من حيث ميوله التلقائية لتفهم الأمور التى هى أقرب لتناوله ويسهل الشعور بها عن طـــريق الحواس المختلفة الموجودة فى الذات الأنسانية . . .

وإذا ما انطلق الانسان لوضع معالم ثابتة لغاية وجوده فعليه أن يعمـــد للفحص والتمحيص والبحث والأستقراء إلى أن يدرك ظواهر معيشته القائمة .

وهذا بالتالى يرتكز على مدى مقدرته للتفهم والتبصر والأحساس من خلال واقعه المادى وبما يحيط به وبسيطرة عقله على دوافع الحس ونزواته .

والانسان منذ وجوده يسعى لتفهم الجانب الروحى والجانب المادى فى حياته وكلاهما يسيران جنبا إلى جنب لاينفصلان ويكونان معا كلا متكاملا يعبر عن حقيقة وجوده فاذا ما اتجه التفكير لوضع مفاهيم وقيم معينه فيجب أن تكون فى مضمونها نافذة إلى داخل النفس البشرية وتشبع كلا من الجانبين وتحقق مطالبها ، بحيث إذا ماكان هناك تناقض فى الفكر وانبثقت تلك المفاهيم تبحث وراء واقع منها دون الآخر فلاشك انه سيكون لتلك القيم والمفاهيم والغايات من القصور مايؤدى بالتالى إلى اشباع جانب دون الآخر مما يترتب عليه اضطراب فى الغايات والسلوك فى نطاق الحياة الانسانية .

وعليه فاذا ما اتجهت البشرية نحو وضع قيم ومعايير لها تستهدفها فى حياتها

فيجب أن يكون هناك تقدير لكل من الجانبين الروحي والمادى حتى يكون هناك التلازم الفعال بين الفكر والروح والسلوك والواقع.

وبالاسترسال فى بحث ظاهرة الوجود الأنسانى وغايته فلا مفر من الاصطدام بعدة تساءلات عما إذا كان الأنسان قد وجد فى تلك الحياة ليتعذب ويشقى أم أنه قد وجد ليعيش حياة فاضلة وسعيدة متكاملة — فتلك الظاهرة قد جذبت اليها عقول الفلاسفة ووجهت نحوها أفكارهم ووجداناتهم يبحثون وراء تفسيرها ووضع معايير لها وفلسفة ثابتة تقترن بها ، تريد النفوس أن تهتدى إلى معالم الوجود من خلال السعادة والألم وتحدد أبعاد وجودها لتحقق الاستقرار الروحى والمادى .

فالألم كظاهرة من الظواهر الانسانية تعتبر فى نظر الفلاسفة ذات وجهين الجانب الأول هو تعليل تلك الظاهرة وادراك حقيقتها ومسبباتها ، والوجه الثانى هو كيفية الاهتداء إلى طريقة التحرر والتغلب عليها والتخلص من آثارها ومسبباتها .

ومما لاشك فيه أنه ليس هناك مجال لأنكار الآثار اللاحقة للتطور والتقدم العلمى واذدهار تطبيقاته واشعاع تأثيره المحسوس فى نطاق البيئات الاجتماعية من حيث السمو بالحياة الانسانية والعمل على توفير كافة متطلباتها ومستلزمات الحياة المتكاملة المتقدمة ولكن هناك جانب لايمكن أن نتغاضى عنه أيضا ألا وهو ذلك الجانب النفسى من الانسان وتلك النزعات التى قد تسبب له بعض الآلام والاضطرابات المتباينة .

فاذا ما فرض أن التطور أخذ يسير فى مجراه اللانهائى وأنه يسير قدما للأمام بخطوات متسعة نحو الازدهار والكمال حتى يكاد أن يصل إلى سدرة المنتهى ، ونتصور كذلك أن الانسانية قد تمكنت من تحقيق الرفاهية والكمال من حيث مظاهر الاستمتاع بلذات الحياة بتباين فروعها ومستوياتها — فنقف هنا

لنتساءل هل ستكتفى البشرية على هذا النحو وتستقر نفوسها وعواطفها وتهدأ أنفعالاتها الروحية والمادية وهل سينتهى طموحها وتكتفى بما وصلت اليه من اسباب اللذة والكمال حتى تتمكن من القضاء على مظاهر الألم والاضطراب ؟

لاريب أن ذلك يدعو إلى التشكك وعدم الاقتناع والأستسلام ، فالانسان فى طموح دائم مستمر وتمتد أبعاد آفاقه إلى ما لانهاية — فكلما يصل إلى مستوى معين تطلع إلى مستويات أخرى تعلوها وأكثر تعقيدا منها تحتاج إلى طاقات أكثر ومجهودات أشق من أجل الوصول إلى تحقيقها . كما وأنه كلما بلغ الانسان الى درجة من درجات التقدم والرقى تطلع الى حياة أرقى وأسمى من واقعه المادى الحالى . . .

وهكذا لا يقف الانسان عند حد حتى ولو أعطاه الخالق كل مايتمنى ويتطلع اليه ويرجوه فى حياته ، ولن يكتفى حتى ولو أعطاه الله من الصحة والجمال والقوة والخير ووسائل الرفاهية فانه سينقاد لصوت ينبعث من أعماقه ويلح عليه بالمزيد ويطلب الأكثر ويتطلع إلى مستويات ومطالب أخرى . . . وهكذا فالانسان بتباين مستوياته وامكانياته فى صراع دائب تارة مع الحرمان والشقاء وتارة مع قلق نفسه الطامعة المضطربة .

ولو تتبعنا تلك الظاهرة لوقفنا على حقيقة بواعثها ومسبباتها وعلاتها الأساسية وذلك من حيث عدم وجود معايير ثابتة ومقاييس يمكن أن تقاس بها درجات الكمال ومعانى السعادة ومظاهر الحياة الأنسانية ، كما وانه ليس هناك مثل عليا متكاملة اذا ما وصل اليها الانسان قنع بها واستقرت أعماقه وهدأت شهواته وانتهت عندها آفاق آماله وتطلعاته .

فالانسان فى فراغ دائب، وهذا الفراغ الذى يتسع من وراء تلك التطلعات اللامحدودة كثيرا مايؤدى إلى مايسمى شقاء وآلام الفراغ، وذلك لأنه ليس هناك معنى للحياة دون أن تتوفر لها المثل العليا الثابتة المتكاملة نسبيا ، والقيم التى تحد

من تطلعات الإنسان اللانهائية وتنظم سلوكه البشرى المضطرب فى نطاق المجتمع الواحـــد .

ومن ثم فتحرر الانسان من هذا الفراغ وتقربه إلى المثل العليا المتكاملة جعله يقترن إقترانا وثيقا بالمعرفة التى هى السبيل الوحيد القادر على هداية النفس واضاءة جوانب طريق الانسان الذى احاله الفراغ إلى درب طويل مظلم كثير العثرات والفجوات يقود عابره نحو العدم والانهيار والمتاهة . . .

والمعرفة فى حد ذاتها هى أكبر معين للانسانية عامة لما لها من آثار بالغة خالدة . . فتكشف عن أعماق النفس وتفضح خباياها وتبلور مايكمن بها من مثل عليا واستعدادات سامية للانطلاق نحو غايات كريمة ، وعن طريق المعـرفة تترفع قيمة النفس البشرية وتجعلها تسمو على آفاق السلوك الانسانى بغـــاياته الزائلة . . وهكذا فالمعرفة لديها من القدرات والإمكانيات ماتمكن الانسان من التوفيق بين الادراك العقلى والاحساسات والشعور العاطفى الإخلاقى وتجعـل هناك التحاما وتآلفا ما بين المعرفة والحكمة وبين الادراك وحاسة الجمال والسلوك الذى هو مجرد انعكاس لتلك التأثيرات وتلك الاحاسيس والتذوق والتقدير.

السلوك الانسانى

بمتابعة مظاهر السلوك الانسانى خلال البيئات الأجتماعية فاننا قد نقف أمام عدة مظاهر ومؤثرات وقفة حائرة من حيث السلوك الذى خضع للعوامل الفطرية التى تدفع الانسان لكى يسلك سلوكا غريزيا وهذا السلوك هو مجـــرد انعكاس لمؤثرات نابعة من البيئة المحيطة به بحيث تشكل له الحـــدود والابعاد وكذلك الوسيلة التى ينتهجها الفرد نحو قضاء حاجته — وربما كان هناك تأثير مزدوج ما بين الدوافع الغـــريزية والمؤثرات المحيطة بحيث تعطى تميزا خاصا للسلوك الفردى خلال المجتمع الحاوى له .

والانسان منذ أول وجوده يتأثر بما حوله ويتكيف لمعاملة من يجاوره وقد اتجه بعض علماء النفس إلى الاجماع على أن الغايات الحيوية عند الانسان هي ثلاث :

١ — المحافظة على الفرد
٢ — المحافظة على النوع
٣ — المحافظة على الجماعة

وبملاحظة السلوك الانسانى خلال البيئة الاجتماعية الحاوية له نجد أن هذا السلوك القطرى قد يكون معبراً فى مضمونه عن دوافع داخلية ومؤثرات ثابتة فى النفس البشرية .

ولكى نقف على حقيقة هذا السلوك الذى ينتهجه الفرد يجب أن نقف على حقيقة الدوافع والبواعث التى تحرك الانسان تجاه سلوك معين:

فالبواعث : هى دوافع خارجية

والدوافع : هى الشعور أو الاحساس الداخلى الذى يهيىء الفرد لسلوك معين أو للوصول إلى أهداف معينة . فهى اما أن تكون :

أ — دوافع أو حاجات عضوية وهى فطرية
ب — دوافع اجتماعية نفسية
ج — ميول واتجاهات

والإنسان يعمل جاهدا ليس من أجل تحقيق أو اشباع رغبة واحدة وإنما نحو اشباع عدة دوافع ورغبات تسيطر عليه وتدفعه لأنتهاج سلوك معين .

* * *

الضوابط الحاكمة للسلوك الغريزى :

الانسان من حيث أنه موجود فله الحق فى الحركة والتخاطب والتعامل

والعمل والسعي من وراء توافر سبل معيشته لتكوين حياة متكاملة وكذلك نحو أقامة علاقات عامة تساهم فى تكامل مظاهر حياته ووجوده — كذلك له الحرية فى انتهاج السلوك الذى يحقق له الاستمرار وأمتلاك موارده وامكانياته التى يدبر بها شئون حياته وينظمها — كذلك له الحق فى ان يعتنق العقيدة التى يشعر فى اعتناقها بالاستقرار والصفاء الروحى — كذلك له الحق فى الانتقال سعيا وراء الموارد اللازمة له .

وبحثنا هذا ليس وراء الأستقصاء عن الحقوق الطبيعية للانسان وأنما وراء ذلك السلوك الذى ينهجه لقضاء حاجته ، فيجب أن يكون هذا السلوك قائما على ادارك واع للحقائق العلمية التى تدنو به نحو الكيان الانسانى وتنأى به عن السلوك الحيوانى القاصر على الانتقال بالواقع المادى دون التفهم والتعقل فى الموجودات ثم التسامى والفكر والغرائز نحو ايجاد عالها . فيجب على الانسان إلا يتقيد ويعتمد على مجرد الاحساسات فى استخلاص جواهر الموجودات لأنها قد تكون خاطئة وفاسدة . ومن هنا تحتم أن يكون هناك التحام مابين الحواس والفكر لكى يتمكن من استنباط آراء صحيحة واستنتاجات موفقة صالحة ترتبط بالواقع المادى وفى نفس الوقت تقترب من الفضائل والقيم الأخلاقية السامية وعندما تكون للتجربة هى مصدر لأستنباط الفكر فيجب أن يكون هناك توفيق مابين الواقع المادى والمثالية الجوهرية والمعايير المتفق عليها والتى تكون قائمة على أركان وأسس قدسية تنعكس اشعاعاتها على السلوك الأنسانى وتباركه خلال البيئة الاجتماعية الحاوية له .

ومما لاشك فيه أن السلوك الاخلاقى الهادف إلى تنظيم الحياة الانسانية والتوفيق بين العلاقات المتداولة لتنظيم منهج الحياة الاجتماعية يجب أن يستهدف جواهر سامية لوجودها المادى من حيث السمو بالغرائز الانسانية وتنقية النفوس البشرية من أدران الرزائل والشرور والأنانية .

ولاريب أن لم تكن الفضيلة والقيم الاخلاقية والمثل الأنسانية ذات وجود مادى وتتغلغل جذورها فى أعماق النفوس البشرية فأنها ستصبح ولاشك مجرد

نظريات هشة وأقوال عابرة لاتستحق الالتفــات إليهاأو الاهتداء بضيائهـا المشرق أو الاصغاء إلى مضمونها وغايتها النبيلة التى هى الأساس لقيام المجتمعات الفــاضلة

وعليه فيجب أن يكون هناك كيان ثابت راسخ الجـذور للخير والصالح العام بحيث يكون فى صورة شفافة واضحة تسهل على العقول تداركها والتفاعل معها حتى يتيسر ايجاد خلق الحلول المتباينة الموفقـة لكثير من المشاكل الاجتماعية المعقدة ونتمكن من ايجاد الضوابط الحابكة لسلوكها الاجتماعى الذى يقترب بنا بقدر الإمكان من جوهر الفضيلة السامية .

الغرائز الانسانية العامة :

فاذا ماتأملنا مجموعة الغرائز التى تتحكم فى السلوك الانسانى بصفة عامة نجد أنها لاتخرج عن ثلاث مجموعات كبرى أو غرائز عامة من جيث :

أ ـــ غريزة الذات

ب ـــ غريزة الاجتماع

جـ ـــ غريزة الجنسية

وعند دراسة السلوك الانسانى بصفة عامة نجد أنه لايخرج عن نطـاق تلك الغرائز الأساسية الفطرية التى صاحبت الوجود الانسانى منذ القدم .

وقد عرف « مكدوجل » الغريزة بأنها استعداد عصبى نفسانى يجعــل صاحبه يلتبه إلى مؤثرات من نوع خاص،ويدركها ادراكا حسيا ويشعر بانفعال من نوع خاص عند ادراجها ويسلك نحـوها مسلكا خاصا أو على الأقل يشعـر بنزعة لأن يسلك نحوها هذا السلوك (١)

---

(١) علم النفس «الدكتور عبد العزيز القوصى»

وقد تعرض «مكدوجل» فى مؤلفه « مقدمة علم النفس الاجتماعى» لأهم الغرائز البشرية المعروفة ومجموعها اثنا عشرة غريزة عرفها جميعا فى النهاية بغريزة الحياة أو غريزة حب البقاء وهى :

١ — غريزة الهروب	٧ — غريزة الطعام
٢ — غريزة الهجوم	٨ — غريزة الاقتناء
٣ — غريزة النفور	٩ — غريزة الانشاء
٤ - غريزة حب الاستطلاع	١٠— غريزة التناسل
٥ — غريزة الاعتداد بالذات	١١— الغريزة الوالدية
٦ — غريزة الخضوع أو التسليم	١٢— غريزة الاجتماع

وتلك الغرائز البشرية لها من المميزات والصفات الثابتة التى تقترن بالوجود الانسانى اينما كان ذلك من حيث :

أولا : الفطرية : أى انها غير مكتسبة ولو أنها قابلة للتعديل

ثانيا : العموم فى النوعية وذلك من حيث وجودهافى جميع أفراد النوع الواحد بدون استثناء أو تمييز الأنواع عن بعضها .

ثالثا : الثبات أى أنها ثابتة لايمكن استئصالها بعكس الاستعدادات المكتسبة التى يمكن زوالها بزوال المؤثر المسبب لها أو الأمكان بتبديلها بغيرها ولو أنها تختلف فى الدرجات احتلافا متباينا .

رابعا : الظهور على مراحل تكاد تكون ثابتة.

خامسا : وجود مظاهر الشعور الثلاثة واضحة فى كل منها فى حالة قيام الكائن الحى بسلوكه الغريزى .

سادسا : تميز كل غريزة بانفعال خاص ومصاحب لها

سابعا : القيمة الحيوية وذلك لما يترتب عنها من وظائف حيويه بالنسبة للكائن الحى أثر النشاط الغريزى .

ومن هنا فعند دراسة الطبيعة البشرية يستلزم علينا أن نتتبع أثر تلك الغرائز فى تحديد أبعاد السلوك الانسانى من حيث كونه انعكاسا لحياته النفسية وتعبيرا عما يدور فى أعماقه من احساسات وخواطر . وطالما أن السلوك هو انعكاس مباشر للغرائز والدوافع والآثار الوجدانية النابعة من صميم النفس البشرية فبحثنا هذا يتطلب وقفة سريعة لتمييز السلوك الانسانى من حيث كونه :

أولا : سلوكا فطريا (غريزيا - طبيعيا)

ثانيا : سلوكا مكتسبا

أولا : السلوك الفطرى :

ولاشك أنه قد يفيدنا بحثنا هذا نحو فهم طبيعة السلوك الإنسانى أن ندرك ما إذا كان الانسان يسلك سلوكا نتيجة انطباعة بمؤثرات البيئة المحيطة به أم نتيجة عوامل فطرية كامنة فى داخله أم لامتزاجهما معا .

هذا ولايخفى أن مايفرق الانسان والحيوان أن الأول ينقاد وراء تفكيره وارادته وعقله بحيث يتحكمان فى سلوكه ، والسلوك الفطرى عند الانسان إما أن يكون سلوكا يعبر عن أفعال منعكسة أو رد فعل لمؤثرات خارجية تنتهى بزوال المؤثر الخارجى وتسمى بالافعال المنعكسة والتى تتم دون أن يكون هناك أثر للانفعال .

أما الفعل الغريزى فيصاحبه الشعور بمظاهره الثلاثة من حيث الأدراك وفيه الوجدان أو الانفعال وفيه النزوع أو الرغبة أو الاندفاع .

وعليه فالفعل الغريزى يكون مقترنا بالمعرفة أو الادراك والغالب أن تكون الفطرة مجرد استعداد يشترك فيه الافراد حيث تدفعهم للقيام بسلوك معين إذا

ماتوفرت شروط يرتبط بعضها بالموقف والبعض الآخر بالكائن نفسه وهكذا نستدل على أن السلوك الفطـرى الغريزى قد يكون سلوكا مباشرا تلقائيا واما أن يكون سلوكا غريزيا معدلا تتحكم فيه الناحية الادراكية فى النفس البشرية.

وعلى أثر اندماج الانسان فى البيئة الحاوية له يتضح أثر تلك البيئة من حيث تقوية ذلك الاستعداد أو اضعافه وكما وأنها تسمح له بالظهور فى الحدود والأبعاد التى تضعها له ، وأصبحت لدى البعض ميول وعواطف مكتسبة تدور حول محاور أساسية فى التكوين الاجتماعى من حيث الخير والحق والجمال .

وعليه يتضح ذلك الدور الذى يـلعبه كل من العقـل والبيئة فى تشكيل الانسان وتطوير سلوكه وتعديله وتهذيبه .

وطالما أن الغاية الأساسية من حياة الانسان هى المحافظة على نوعه وضمان بقائه فقد تم تقسيم الغايات الحساسة للانسان الى ما يأتى :

١ ـ المحافظة على الفرد

٢ ـ المحافظة على النوع

٣ - المحافظة على الجماعة

والانسان هكذا فى محاولات لاثبات وجوده عن طـريق انتهاجه لسلوك معين مقيـد بتلك الغرائز ونزعاته العامه التى تنمو فى ظـل وجوده خلال البيئة الحاوية له .

المؤثرات الخـــارجية على السلوك الانسانى

١) الانفعـــال :

ويتمثل فى الحالات الوجدانية العنيفة التى تشمل النفس البشرية والجسم بالتغيير والاضطراب وتكوين احساسات خـاصة تصدر من الجسم وتصحبها

عادة حالة نزوعية .

ولكى يحدث الانفعال ينبغى أن تتوفر له عدة شروط :

اولا : وجود الكائن الحى الذى لديه من الظروف الفطرية والمكتسبة مايحدد مدى وطبيعة استجابته للمؤثر .

ثانيا : مؤثر خارجى أو باعث داخلى وهو الادراك

ثالثا : حدوث الاستجابة والانفعال لمواجهة الشعور الداخلى والتقيد الخارجى وناحية التغيير الفسيولوجى .

ومن هنا فالانفعالات تكون مرتبطة والاحساسات المختلفة كذلك تتوقف على الناحية الادراكية التى يمكن اعتبارها ركنا من أركان الناحية الانفعالية وقد تكون فى حد ذاتها تختص بالناحية التعبيرية ، وقد تكون الناحية التأثيرية فى الاولى تعتمد فى قياسها على التغييرات الفسيولوجية والثانية على مدى تأثير الشخص ذاته بالمؤثرات الخارجية .

الأنفعال وأثره فى مظاهر الوجود

لا شك ان الدوافع لها عميق الأثر من حيث اعتبارها قوة دافعة للعمل البشرى من حيث مدى الارتكاز فى استثارة انفعالات الافرادوتحريك عواطفهم والتحكم فى غرائزهم من أجل اجتذابهم وتوجيههم نحو القيام بعمل معين .

وبالوقوف على العوامل التى نتمكن عن طريقها من اثارة العواطف والتحكم فيها والتى بالتالى يمكن عن طريق العواطف تنظيم الغرائز والحد من طغيانها على السلوك الانسانى والارتقاء بها الى آفاق بعيدة عن الانحراف قريبة من الكمال والمثالية .

وهكذا فعن طريق التحكم فى النزعات الغريزية للفئات البشرية وبانتهاج

الطرق والوسائل التى ترمى الى استثارة احساسات الفرد وتهييج مشاعرة ودفعه الى تذوق الجمال والخير والحق فهذا ما ينقى احساساته ويرفع من ذوقه ويقربه من المناهج المتكاملة المتناسقة ـ هذا بدوره مايؤدى الى جعل الانفعالات وسيلة لجعل النفس البشرية تنساق الى الاعمال المتكاملة الخالدة .

الاستهـــواء

وهى من النزعات ذات الصفة الفطرية او الصفة النابعة من وجود الانسان فى نطاق بيئة اجتماعية . فالاستهواء يمكن اعتباره نزعة فطرية او استعدادغريزى فى النفس البشرية عامة تهيىء الفرد لتصديق آراء الغير والتفاعل معها إما بصورة عكسية اى من حيث مدى انتقال الأفكار من فرد الى آخر ومدى ميل الفرد الى تصديق تلك الآراء .

أنواع الاستهـــواء

لقد استقرت البحوث النفسية على تقسيم الاستهواء الى أنواع متعددةمنها .

استهواء مباشر ناتج عن استهوائك لفكرة لاتتردد فى الاعتقادبها واعتناقها وهنالكاستهواء غير مباشر ناتج عن التأثر بمؤثرات خارجية عن ذاتك .

والاستهواء إما أن يكون

استهواء فردى يعود على المتأثر نفسه واما أن يكون استهواء جماعى أى يؤثر فى عدة افراد مكونين لقاء اجتماعى ، وقد يكون هذا الاستهواء مجرد استهواء الكلام أى الايمان بفكرة والتعبيرعنها دون أن يكون السلوك الشخصى المتأثر مطابقا لتعاليم هذا الرأى .

واما أن يكون استهواء سلوكى أى أن سلوك الفـرد فى تلك الحالة مجرد انعكاس مطابق لما آمن به من أفكار ومعتقدات ومؤثرات .

وقد يكون الاستهواء صفة ايجابية أى لا يكون هناك تعارض تجاه اعتناق افكار جديدة واما أن يأخذ هذا الاستهواء صفة ضدية أو عكسية للافكار والمؤثرات .

عوامل نجاحه وشروطه

ولكى يحدث الاستهواء يجب ان يكون هناك مؤثر ومتأثر تحت ظروف معينة . ولا شك أن التأثر من فرد لآخر يتحقق بسرعة وما عليه اذا ما كان كلا الفردين من جنس واحد ومعتنقين لعقيدة واحدة أو حزبا واحدا فهذا مما لا شك يسهل عملية الاستهواء ويزيد من استجابتها المتبادلة .

كما أن هناك من العوامل ماتزيد من معدلات نجاحها وقوتها وهى :

١ — جهل السامع بالنسبة للمتكلم من حيث شخصيته أو مجال تخصصه.

٢ — اذا ما كان السامع فى حالة جسمانية ومعنوية تضعف قدرته على النقد والبحث وراء المسببات والبواعث والعوامل الأساسية التى تيسر عليه اعتناق الأفكار .

٣ — كذلك يكون لتفاوت درجة الذكاء بين المؤثر والمتأثر دورا فى دفع المتأثر لقبول الأفكار دون المبالغة فى الاستقصاء من ورائها .

٤ — وجود الشخص المتأثر فى لقاء جماعى فهذا مما يضعف من مستوى تفكيره وادراكه للمسئولية وقدرته على النقد وبالتالى يصبح منقادا وراء المجموعة وتذوب شخصيته فيها وهذا بالعكس اذا ما كان الفرد بمفرده فيكون أقدر على التروى والبحث والنقد والتمييز .

أثر الاستهواء فى التكوين الاجتماعى

مما سبق نستدل على أثر الاستهواء فى تبادل الأفكار وخلق التحام فكرى

وعقائـدى بين أفراد المجتمع الواحد وجعلهم يندمجون فى أفكار واحدة قـد تتعلق بالدين والتقاليد والقيم الأخلاقية والمفاهيم المتوارثة .

ومن هنا تتمكن المجتمعات من الحفاظ على تراثها الثقافى والقومى عن طريق استخدام مالدى النفوس البشرية من استعدادات فطرية كامنـة فى أعماقهم تهيئهم للترابط والالتحام الفكرى والسلوكى وتلاقيهم نحو غاية واحدة .

وامام ظاهرة الاستهواء قد تعترض طريقنا مايكمن فى النفوس من استعدادات فطرية أيضا من حيث غريزة الشك التى تعتبر من القوى المضادة للاستهواء من حيث أنها تبعث فى النفوس ملكة النقد والتشكك والمناقشة والتأمل والتطلع والبحث وراء البراهين والاستدلالات الكافية لاجتذابهم نحو تلك الأفكار أو العقائد الجديدة لاعتناقها والامتزاج معها .

وعليه فلضمان انتقـال الفكرة بين أفراد المجتمع الواحـد بسهولة ويسر وما يترتب عليها من توطيد الصلات بين أبنائه وجعلهم أكثر ترابطا وقـدرة على التفاهم والانسجام الروحى والمادى فيجب ان تراعى تلك الدولة فى اعلا خير العادات واحسن المبادىء التى لاتترك مجالا أو ثغرات للنزعات المتشككة حتى تخلق النفوس المتكاملة السامية ـ فـاذا ماكان هناك استهواء مابين الأفراد ضمن سلامة غاياته وحتمية الارتقـاء بالنفوس أو حمـايتها من الانحـرافات والتمسك بالعادات والمبادىء الخالدة .

وأخيرا فيجب على كل بيئة لا تسرف فى عملية الاستهواء والا فقد تؤدى الى اضعاف شخصية أبنـائها وذبـول ملكات النقـد والقـدرات على التفنين والابتكار .

المشاركة الوجدانية

تلك الظاهرة لاتظهر دلائلها إلا عندما يجد المرء نفسه فى جمع من الافـراد تمر بهم ظروف معينة فتولد عنها حالات وجدانية خاصة ذات تعبير واضح قـد تلحق بهم جميعـا أو تختص بفئة منهم وتنتقل من شخص لآخر حتى تصبح فى النهاية حالة وجدانية متشابهة لدى الجميع ولهذه الظاهرة من الآثار فى هذا الجمع من حيث تماسك وتجانس أفراده وتعتبر كرباط قـوى يجمع ما بين القلوب وتوحد بينهم .

هـذا وقد تصبح من الأمور الشاذة أن يوجد شخص أو فئة فى مجموعة كبيرة تمر بحالة وجدانية خاصة وتلك الأقلية تشذ عنها ولاتتجاوب مع أحاسيسها ومشاعرها وعليه لاتستطيع تلك الجماعة أن تقبل ببساطة وجودهم بينهم حفاظا على الشعور السائد من حيث التجانس الوجدانى .

مما سبق يمكننا أن نستدل على أن هناك نزعات عامة ودوافع داخلية تدفع الفـرد لانتهاج سلوك معين كما وانه توجـد بجانب تلك النزعات دوافع أخرى ثانوية يكتسبها الأفراد بموجب وجودهم فى نطاق جماعى وتتفاوت فيما بينهم تبعا لعـدة عوامل ومن تلك الدوافع الثانوية العـادات والتقاليد والعواطف والعقد النفسية .

العــــادات

توجد فى نفس البشرية من الاستعدادات ما يجعل الأنسان يكتسب ميولا خاصة لأداء سلوك على النحو الذى يعطيه تميزا خاصا يميزه عن غيره .

فالعــادة : هى عبارة عن سلوك معين ينتهجه الفرد بنمط آلى متكرر لأنهاء عمل واحد أو عدة أعمال أو أنها تعنى الحفاظ على منهج معين وأسلوب خاص لأداء سلوك معين على نحو آلى مكتسب يؤدى بدوره الى أداء العمل بسرعة واتقان وبدون جهد .

وبــلا شك أن لكل منــا احساسات ووجدانــات خاصة وأساليب تميزه ونرى هــذا يتمثل فى تكرار عمل واحــد وبصفة مستمرة لما يعود على صاحبه بلذة أو فائدة معينة ويظل هــذا التكرار الإرادى فى الاستمرار حتى يصبح عادة مكتسبة وتتمثل تلك الصورة امــا فى عادة حركية حرفية أو عادة عقلية من حيث طريقة المنطق والتفكير واما فى اختصاص صاحبها بعــــاطفة معينة تسود باقى غرائزه .

اكتساب الشخصية للعادات والتخلص منها

فمن الواضــح أنه يمكن عن طريق تتبع سلوك شخــص التنبؤ بسلوكه بعد ذلك على أثر ادراك طابعه وانعكاس شخصيته وروحه على سلوكه ويصبح له لون واتجــاه معين وأسلوب خاص ومن هنا ينبغى على المجتمع من أجل التحرر من الجمــود والتقاليد الباليه التى تعوق التقدم وتعترض طريقة نحو الرقى أن يهتم بأفراده من حيث مدى اكتسابهم للعادات الحسنة والتخلص من ماهو مسىء وأن تكون هناك مفاهيم عليا تتضمن فى محتواها أعمق معانى الكمال والتى تتفق وتتلاءم مع الميول والاستعدادات الاجتماعية الشائعة .

وان كانت العادات لها من المميزات، ماتعــود على صاحبها بسرعه ازاء ذلك العمل واتقانه الا أنها فى نفس الوقت تؤدى الى الجمود من ابتكار أساليب جديدة متطورة وهــذا ماتتبلور آثاره على نطاق أعم وأشمل من حيث وقوفها عقبة فى

سبيل رقى الفرد وبالتالى المجتمع عامة إذا لم يكن هنالك من المرونة والقابلية ما يساعد على تحرر النفوس وقد عبر الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو من ذلك فقال « خير عادة ألا يكون للمرء عادة ما » وكلما انتشرت العادة فى المجتمع ورسخت جذورها فيه كلما اقتربت من صفة التقليد ، ومن هنا تأتى حساسية العادات فى المجتمع من حيث كونها سامية متقدمة تنهض به واما أن تتصف بالانحطاط فتنحرف به عن السمو والكمال .

التقليـــد

وظاهرة التقليد تعتبر من العوامل الهامة فى تشكيل المجتمعات ومن حيث كسب الأفراد لأساليب السلوك المتباينة .

والتقليد من حيث أنه يتمثل فى انتقال السلوك بين أفراد المجتمع فهو يعتمد فى وجوده على مدى الرغبة المتوفرة للشخص المقلد وتدفعه لاختيار سلوك معين والتشبع بظواهره وبالطبع لن يكون الدافع فحسب هو كل المقومات التى يحتاجها الانسان للاختيار وانما تتوقف ايضا على المقدرة المتوفرة لدى هذا الشخص والامكانيات التى تتوفر لديه لتمكنه من انتهاج هذا السلوك .

ولو تتبعنا ماوراء تلك الظاهرة والدافع الى وجودها فى نطاق اللقاءات الاجتماعية لوجدنا أن من البواعث على تقليد الأشخاص لسلوك معين لفرد أو أفراد آخرين تنحصر من حيث غايتها فى الفرض النهائى من التقليد والآثار التى تترتب عليه وتعود على صاحبه من ورائه ، كما وانه فى ممارسة التقليد قد يتوقف على مـــدى اعجاب شخص بصفات معينة تتوفر فى شخصية مشهورة وقد يؤدى هذا الاعجاب بدوره الى امتصاص حركات هذه الشخصية وتصبح

كطابع خاص له أيضا .

والتقليد كايحاء ينتقل من فـرد لآخر يتعدد فى أنواعه من حيث كـونه تقليد فردى أى من فـــرد لآخر أو تقليد مقصود أو غير مقصود .

ومما لاشك فيه أن للتقليد آثاراً بالغة العمق فى الكيان الاجتماعى من حيث كونه وسيلة فعالة فى نقل العادات والتقاليد المختلفة والحفاظ عليها ثم بالتالى توارثها جيلا بعد جيل كذلك تـوارث واكتساب المهـارات الفنية المتداولة فى المجتمع .

واذا ما اهتم بتلك الظاهرة فى نطاق المجتمع لاتخذت وسيلة ناجحة للبث فى النفوس كثيرا من النـواحى الدينية والخلقية والاجتماعية بحيث يتكامـــل هذا السلوك بصورة متكاملة خالدة ويخلق بهذا معـاييراً سامية ومفاهيم لآداب السلوك الانسانى .

العواطف وأثرها فى التكوين الإخلاقى

الانسان بمالديه من استعدادات فطرية وعادات وجدانية تتمثل فى أحاسيس ومشاعر تبعالوجوده فى تكوين اجتماعى ومايترتب عن مروره بتجارب واحتكاكات خاصة مع من يجاوره يشعر باستثارة معينة فى تلك الظروف من جراء مايتولد من انفعـالات يتطلبها كل موقف أى أن سلوك الافراد تكون غالبا مرتبطـة بمؤثرات واحتكاكات خارجية .

وقد أشار « ماكلدوجـل » فى أقواله عن العـاطفة « انها كجزء من

تكوين العقل أو كاستعداد عقلى اذا توفرت شروط تجتمع فى صاحب العاطفة وفى مجال حياته وفى أثناء الاستثارة فينفعل ويظهر سلوكه وكل انفعال وسلوك يختلف باختلاف الموقف الذى تحدث فيه الاثارة.

ومن ثم فالانسان بما لديه من استعدادات فطرية مختلفة متباينة قد تؤدى الى تكوين أوضاع لها شىء من عدم التنظيم لو ظلت على صورتها الفطرية البدائية ومن هنا جاءت العواطف بشىء من تنظيم السلوك على درجة أرقى من مستوى الغرائز بحيث تتحكم فيها وتوجهها نحو وجهات متطورة تبعا لممارسة الفرد للتجربة والخبرات الناتجة عنها والعواطف تكون ناتجة عن واقع مادى أو واقع معنوى والعواطف المادية تكون ناشئة عن انعكاسات للواقع المادى الملموس الذى يمكن لصاحبها أن يدركها بالحواس أما العواطف المعنوية وتنتج من انعكاسات لواقع غير ملموس كعاطفة الحب وتذوق الجمال والتقرب من الخير والحق والانسانية وقد يكون فى التكوين العاطفى للانسان عاطفة سائدة توحد ما بين وجهات العاطفة والنزعات المختلفة الكامنة فى النفس بحيث توجه كافة نشاطه العقلى نحو غاية واحدة لاشباعها لما لها من سيطرة على تفكيره ومشاعره.

ومن هنا تتبلور أهمية العواطف فى التكوين الاجتماعى بحيث يمكن توجيهها توجيها سليما لصالح المجموع وتصبح قوة دافعة للتقدم والرقى بحيث لا تنحرف وتنفصل عن الاطار العقلى والفكر المستنير.

فليس هناك أعمق تعبيرا من التوفيق بين الغايات والسلوك خلال المجتمع الواحد مثل توحيد العواطف وتوجيهها نحو الحق والخير والجمال والوطنية فهذا هو السبيل الواضح المعالم الذى يؤدى الى الابداع والتفنين والابتكار والتماس

اساليب النجاح فى الحياة والارتقاء بالارادة الانسانية فى حدود الاطار الخلق الكامل .

وعلى سبيل المثال اذا ماكانت العاطفة السائدة هى « حب الخير » فنجد أن الجهود الانسانية نتيجة لتحقيق هذا الاتجاه فتنصب اطلاعات الفرد على المثل الاخلاقية والمبادىء الانسانية السامية وتتبلور الحقوق الخالدة ويتقرب السلوك البشرى عامة الى ما يحقق تلك المفاهيم وتعمل على أن يسود الاخاء والسلام والاستقرار .

الكبت والعقد النفسية

الطبيعة البشرية مائلة بفطرتها للانطلاق نحو اشباع رغباتها وجوامحها واذا ما اندفعت نحو تحقيق مآربها نجد أنها تصطدم بواقع الحياة بما فيها من قيود وضوابط حابكة والتزامات من الفرد نحو مجتمعه .

وهكذا تصبح النفس فى صراع داخلى يدفعها نحو تحقيق نزواتها الطبيعة ودافع آخر يجبرها للرضوخ لنواحى البيئة واعتباراتها فاذا ماازداد هذا الصراع وحال دون أن تصل الى مطالبها فقد يؤدى الى حالات من الكبت والامراض النفسية وعقد تشيع فى النفس من القلق والاضطرابات مايضعف النفوس ويشتت الطاقات والقدرات.

وعليه فتقع على المجتمع مسئوليات جسيمة من حيث وضع المناهج المنظمة التى توضع على أسس علميــة سليمة لحقيقة النفس البشرية ومطالبها ويجب أن تعمل السلطات والمجتمع على تعديل وتطور الغرائز بما يلائم لقيام مثل عليــا . فان من الواضح أن الخلق المتين القائم على الايمان والتفهم قد يخلق النفوس القوية ويجعلها تصمد أمام التيارات المتضاربة وتشعر صاحبها بالكــرامة وتنمية الضمير .

تكامل الشخصية

مما سبق نستــدل على أنه من خــلال السلوك الإنسانى فى نطــاق بيئته الاجتماعية قد نتمكن من الاستدلال على حقيقة الطبيعة البشرية ومدى سيطرة الغرائز والدوافع على الفرد وتحكمها فى سلوكه .

فالفرد بحكم كونه متأثرا بمجموعة من الاستعدادات سواء أكانت فطرية أو مكتسبة يمكن الحكم عليه من حيث مدى تكامل أو اهتزاز شخصيته وتبعا لمدى التنسيق بين النزعات الفطرية والمكتسبة فى نفسه ونوع العاطفة السائدة التى تتحكم فيه .

والبيئة الاجتماعية بكونها تحتوى على فئات عديدة متنوعة من الأفراد فقد يكون الاختلاف بين شخص وآخر يرجع الى ثلاثة مؤثرات :

١) الاستعدادات البيولوجية والنفسية

٢) البيئـــــة

٣) مؤثرات خارجية عامة

وكان الانسان دوما يفتش عن جوهره وجوهر وجودهواختلفت الآراء بالنسبة لكل عصرولكل انسان ولم يعرف لوجود الانسان والكون مفهوم واحد حقيقى ولذلك فالمقاييس التى يمكن أن تتوصل اليها هى فى حقيقة محتواها مجرد مفاهيم عـامة لايمكن لنـا أن نعتبرها مقاييس ثابتة دائما لأبعاد وآفاق غير محـــــدودة .

واذا ماكان المجتمع يتألف من مصـالح متضاربة ومتباينة تجعل كل فرد لايفكر الا فى مصلحته وتحقيق حـاجته فلا شك أن هذا سوف لايؤدى الا للاضطراب والفوضى والتفكك . وهكـذا النفس البشرية فلو تصارعت الغرائز والانفعـالات والميـول والأحاسيس بحيث يحاول كل منها أن يستأثر بسلوك صاحبها على النحـو الذى يشبعها فيه ويحقق لهـا مطالبها وشهوتها فلا شك أنها

ستؤدى بصاحبها الى الأضطراب النفسى وانحراف السلوك واهتزاز الشخصية بعكس اذا ماكان هناك توفيق بين تلك الغرائز والانفعالات وأصبح السلوك البشرى هو وسيلة لتوزيع أقساط متساوية عليها فلاشك أنها سوف تنعكس آثار هذا التنظيم والتوفيق على اعطاء سمات عليا لصاحبها من حيث الاستقرار والاتزان والتكامل وبحيث لايكون هناك تعارض بين النزعات المختلفة وانما هناك تناسق انفعالى واتزان فى السلوك والتصرفات .

ومن ثم فالانسان اذا ماتحكم بما يدور فى داخله من احساسات وخواطر ونزعات ووفق فيما بينها من حيث الاتزان والاستقرار يصبح من ذوي الشخصية المتكاملة المتزنة ثم ينبثق بعد ذلك أثر البيئة بما فيها من مظاهر اجتماعية وأوضاع معينة ومفاهيم خلقية خاصة بها من حيث أثرها فى أن تزيد من تلك الاستعدادات الانسانية وتسمح له بممارسة هذا التفاعل المتناسق وترتقى به أو تخلق له اضطرابا فى الأوضاع يحطم تلك الاستعدادات والاحساسات ويشتتها ويجعله يعيش فى فراغ لانهائى لايدرى ماذا يريد وأين ينتهى وكيف يصل الى استقراره الروحى والمادى .

الأخلاق

وعلم الأخلاق هو أسمى غايات المعرفة لقدرته على ضبط السلوك البشرى وتوجيهه نحو غايات متكاملة سامية يعبر عن أسمى مظاهر الوجود الأنسانى ... وبالتالى فهو قادر على خلق التوافق بين الغايات الفردية والتضامن بين الفئات من أجل خلق مجتمع السعادة والكمال والاستقرار .

وكما هو مستدل على علم الاخلاق فى الفلسفة اليونانية بانه «مجرد مجموعة

قواعد تعليمية غير ثابتة ، الغاية منها هو الارتقاء بأحوال بنى الانسان والسمو بها وتحسينها »ثم تخطط لهم منهجامتكاملا عما ينبغى أن ينهجوه ويسيروا بمقتضى تعاليمه وحـدوده ثم بالتالى ينهاهم عما يجب أن يهجروه من أعمال قد تؤدى الى الاضرار بهم .

ومن ثم فعـلم الأخلاق غايته إصلاح النفوس والأرتقـاء بها الى آفـاق السعادة والكمال والخلود الذى يحدد لهم أبعادها ومظاهرها ومدى توافر الاستقرار والهـدوء للفئات البشرية وذلك لأن المبادىء الاخـلاقية دائما وأبدا تدعو الى الفضيلة والعفة وهما جناحا عمل الخير الذى هو بدوره أساس السعادة والتوفيق بين النشاط الأنسانى عامة .

الاخلاق والمجتمع :

لاشك أن الكمال والسعادة والخير هى ماتصبو اليه النفس البشرية وتتطلع لها بلهفة واشتياق وتتقرب نحوها بصورة اراديه أولاإرادية حيث أنها صدى لمتطلباتها على مر الأجيال وتعبير عن مكونات النفوس عامة .

ومن هنا فالنفس البشرية تجعل من السعادة الغاية القصوى للسلوك والأفعال والتصرفات فى نطاق المجتمع وطالما أن الاخلاق هى الجوهر الذى يحمل فى ماهيته السبل التى تـؤدى بدورها الى الكمال الاجتماعى من حيث توافر الحق والخير والسعادة، وبمعرفة قانون مكونات الاخلاق يمكن استكمال أوجه النقص فى الحياة الانسانية وفتح آفاق شاسعة للأفعال السامية والخصال الحميدة والطاقات المتكاملة .

ويتتبع مراحل الجهود الانسانية ومحاولاتها للخلق والابتكار من حيث النظم والقوانين والعلاقات المادية الروحية نجد أنها مقلدة للطبيعة تقتبس منها وتهتدى بضيائها وتتفاعل معها . فاننا لانكاد نجد اختراعا مها كان الا ونجد له مثيلا فى الوجود النوعى من حيث مظاهر الطبيعة ذاتها .

ومن ثم فخلق النظم الاجتماعى والقواعد الحابكة للسلوك الانسانى يجب ألا تبتعد عن أذهاننا أثر الطبيعة المحيطة بالانسان من حيث تأثيرها فى تبديل أطواره وأخلاقه ومظاهر وجوده بحيث تنتهى الى أوضاع يمكن بموجبها وقواعدها أن تستجيب الى مقتضيات الاقليم وظواهر الطبيعة المحيطة به ،ومن هنا فقد اختلفت أخلاق الأمم باختلاف أقاليمها ويتبلور هذا فى تلك الفروق الشاسعة بين أخلاق أهل البادية عن أهل المدن وأخلاق سكان الوديان والسهول عن أهالى الجبال وهكذا ..

ويتتبع أصل نشوء القواعد الأخلاقية ومسببات ظهورها نجد ان للعقل والفكر الانسانى دخلا كبيرا من حيث تكوينها وابتكار قواعدها وسننها ، فالانسان بحكم وجوده وتطوره فى نطاق التقاء جماعى نجد أنه قد توصل بفكره الى خلق قواعد أخلاقية تنظم فيا بينها من علاقات مرجعها تبادل المنافع والوقوف على ماهية الحقوق والوجبات فاضطراره الى هذا الالتقاء الجماعى دفعه الى تكييف الاخلاق اللازمة لتلك الظروف والمقتضيات .

فالفرد من حيث ذاتيته وكيانه فله واقعين أحداها ذو صفة فردية وآخر جماعى وعليه إما أن يحقق ذاتيته الفردية بما فيها من انفعالات وغرائز وميول

وهذا بالطبع لن يتأتى إلا في صومعة الانعزال أو الاصطدام المستمر بمن يحيطون به، واما أن يتنازل عن جزء منها في سبيل الاحتفاظ على ماتبقى وعلى استقراره في هذا الالتقاء الجماعي .

وعليه فقد إستمد من خلال ارادته ورغبته في الحياة والاستقرار طاقة وقدرة في كبت رغباته والتذرع بالصبر والتنازل عن بعض حقوقه الطبيعية في سبيل مصلحته ومن أجل ضمان بقائه والاحتفاظ بباقي حرياته وحقوقه - ومن هنا أصبحت تلك الاخلاق عادة ثم صارت على مر الأجيال والسنين استعدادا فطريا وغريزيا يبدأ بتوجيه وتحكيم العقل والتفكير وفقا للاحوال والظروف، ثم تعمل الارادة بتوجيه السلوك بصفة اضطرارية متعاقبة وبتكرار هذا العمل يصبح عادة تتوارث بتوالي السنين والأجيال حتى ينتهي بها الحال وتصبح خلقا متميزا لتلك الجماعة الانسانية .

وعلى هذا النمط تكونت القواعد والسنن الأخلاقية بتعاقب السنين ويختلف بين الأمم تبعا لاختلاف أقاليمها وسائر ظروفها وباختلاف أطوار مدنيتها أيضا وتبعا للمؤثرات التي تتوالى عليها وتؤثر في تشكيل المعايير الاخلاقية بحيث تكون تلك المبادىء الأخلاقية واضحة متكاملة لاتحتاج لبراهين معينة لجذب الفئات نحوها وذلك بكونها لاتحمل شكا أو جدلا ، وبأعتبارها قاعدة للسلوك الانساني عامة تستهدف خلق مجتمع متكامل تسوده نظم وعلاقات لاتضارب فيها أو تعارض وانما تجانست من حيث الغاية والوسيلة فلو تمعنا في هذا الهيكل المتلاحم المنسجم لوجدنا أن لهذا التكامل درجات وطبقات ... وأبعاد ...

مكونات التكامل الاجتماعى :

للتكامل الإجتماعى درجات تتمثل فى مدي الحاجة المتبادلة التى تخلق الروابط والعلاقات التى توثق الصلات بين أفراد المجتمع مع بعضهم كذلك بقدر تقسيم العمل وخلق النظم الفعالة التى عن طريقها يتم أشباع الحاجات اللازمة للبقاء والاستقرار .

والتكامل الاجتماعى هو مدى تفاعل الأفراد واستجابتهم للقيم والمفاهيم والضوابط الحابكه التى تنظم السلوك الفردى ، ومدى تبلور المظاهر التى تعبر عن تلاقى الأفراد نحوالوصول الى هدف واحدوغاية مشتركة تنهار أمامهاالتناقضات المختلفة والصراع الهدام ويصبح للجماعة من الالتحام الفكرى والمادى ما يمكنهم من الصمود أمام الهزات التى قد تعترض طريقهم وتحد من انطلاقهم نحو الكمال والاستقرار والرفاهية .

وكلما كانت القيم والمفاهيم ، التى تعلو هذا الالتقاء البشرى ، من الوضوح والتعمق كلما كان اكتسابها دون وعى أو مشقه ، وبالتالى تؤدى الى خلق الرضا العام والاستقرار الروحى الذى هو فى الواقع من أهم الاستدلالات والظواهر على هذا الكمال الاجتماعى .

ومن هنا تتضح حاجة البشرية لبلورة غاية الوجود الانسانى فى صورة قيم ومفاهيم أخلاقية سامية تمجد الانسان وتحترم حقوقه الخالدة من حيث الحياة وتضعها فى صورة انسانية كريمة تحقق ذاته وكيانه وتعطى له الفرصة الكاملة لممارسة الحياة الاجتماعية فى أرفع صورها وأكثرها كمالا ورفاهية .

والأخلاق يكونها اسلوبا بناءاً رفيعا قادرا على هداية الأنسان نحو نورالحق..

ويحول دون وقوعه فى أحضان الرذيلة والأنحراف .. فهى فى حد ذاتها تتصدر المناهج التى تقود البشر الى أوضاع التكامل فى كافة مجالات الحياة . . ومن هنا أيضا نستدل على حساسية هذا العلم من أجل استكمال مظاهر التكامل الإجتماعى والمدى الذى يؤثر به نحو خلق هذا التوافق بين الفئات البشرية بتباين مستوياتها المادية والفكرية فى نطاق المجتمع الواحد . وعليه فكلما كانت القيم والمفاهيم الأخلاقية أكثر ارتباطا بالواقع الانسانى كلما كانت جذورها تمتد الى أعماق بعيدة فى داخل النفس حتى تنعكس آثارها الخالدة السامية على السلوك البشرية بصفة عامة .

والمجتمع بحكم تكوينه من فئات متباينة يتحتم عليها أن تضع مجموعة من القواعد والنظم التى عن طريقها يتم التوفيق بين الواجبات والحقوق فيما بينها وذلك من أجل تحقيق الغايات الأساسية من وراء هذا الالتقاء ـ كذلك توضع التشريعات اللازمة لتنظيم حقوق وواجبات الافراد قبل أمتهم ـ ثم يلى ذلك التشريعات نحو وضع الضمانات اللازمة للحفاظ على تنفيذها فى حدود امكانيات المجتمع .

وبهذا يمكن أن يتحدد مدى تقارب هذا المجتمع من التكامل والانسجام بالمدى الذى تصل اليه استجابة الافراد نحو تلك التشريعات ومدى استقرار المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

والانسان بما له من واقع مادى وواقع روحى فلن يحدث هذا الاستقرار وهذا التكامل من خلال تلك النظم والمفاهيم الا اذا كان هناك اتزان مابين الجانبين وتوفيقا بين مطالبها على السواء.

وهكذا فعلى السلطة المنظمة أن تعمل على :

- التوفيق بين مطالب الفرد ومطالب غيره :

ب - ثم يلي ذلك تقديرا ووزنا لتلك المطالب المتباينة وحدود امكانيات الدولة المتوفرة لديها.

جـ - ان يكون هناك تقدير لتلك التفاعلات النفسية التى تتأصل جذورها فى النفس البشرية

فاذا تمعنا فى مجتمع من المجتمعات الانسانية من أجل اعطائه درجة الكمال والرقى الخلقى - فتلك المعايرة ولاشك أنها ستستند على معايرة الأفعال والسلوك البشرى فى تلك البيئة الأجتماعية ومدى توفيق النظم والأحكام الأخلاقية المتداولة فيما بين هؤلاء الناس والغايات التى تصبو اليها نفوسهم وأعمالهم . . .

ومن ثم فاننا نجد أنفسنا أمام مفاهيم نسبية لاتتوافر لدينا فى صورة ثابتة أو قواعد لاتتغير على مر السنين أو باختلاف المجتمعات - ولكننا سنحاول أن نصل الى تلك المفاهيم ووضع صورة ثابتة لها بقدر الامكان وذلك من خلال استعراضنا لصفحات التاريخ بما تتقنه من مفاهيم وقيم مختلفة التى استهدفت فى مضمونها معايرة السلوك البشرى من خلال بعض الفلسفات الخلقية والحكم عليها من حيث ايجابيتها أو سلبيتها ومدى توفيقها أو فشلها نحو الارتقاء بالوجود الانسانى عامة ضابطة للسلوك الانسانى ومقياس للتمييز بين الخير والشر والسعادة مجردة جميعها من الزمان والمكان .

سقراط والفلسفة الخلقية :

كان سقراط هو أول من أرسى جذور الفلسفة الخلقية فى الدولة اليونانية القديمة حيث أنه أنحرف عما كانت عليه الفلسفة من حيث تخصصها فى دراسة الميتافيزقيا وعلوم الطبيعة واعتبرت السلوك الانسانى ذا مكانة ثانوية فى مجال البحوث والتمحيض . ولكننا نجد الفيلسوف سقراط قد إهتم إهتماما بالغا بدراسة السلوك الإنسانى وبارساء جذور علم الأخلاق ومحاولاته فى وضع مقاييس ثابتة تجرى بموجبها معايرة خير الأفعال وشرها .

الفلسفة السفسطائية

وقبل أن نتعرض لفلسفة سقراط الأخلاقية قد يفيدنا استرجاع الفلسفة السفسطائية التى نددت بالقيم والمثل الأخلاقية واعتبرتها مبادىء جوفاء ومجرد عدة قوانين وتشريعات خلقها بعض القوم الضعفاء من أجل الحفاظ على وجودهم وممتلكاتهم أمام الحقوق الطبيعية وسنة الحياة من حيث حق القوى فى السيطرة على الضعيف وبالتالى استسلام الضعفاء لمن هم من ذوى القوة والبطش ولديهم من القدرات والأمكانيات مايساعدهم فى الحفاظ على تلك الحقوق المكتسبة قبل الطبيعة .

ونرى أنهم قد اتجهوا بتفكيرهم الى أبعاد أخرى حيث أنهم اعتبروا تلك القيم الأخلاقية ماهى الا عثرة أمام الطبيعة البشرية من حيث انطلاقها وكبح شهواتها واهوائها واستقروا بأن :

« تلك القيم من حيث تمجيد العفة مرجعها الى العجز عن اشباع الشهوة ، وامتداح العدل مرده الى القصور عن التفوق على الآخرين » (١)

كما أشاروا الى أن اللذة غاية للسلوك الانسانى عامة باعتبار أن الطبيعة البشرية ما هى الا حشد لعدة شهوات ونزوات يجب أن يترك لها العنان ويسمح لها بحرية الانطلاق من أجل اشباعها ولا يعيب الفرد وفقا لتلك المبادىء أن يستتر وراء الطيبة والسلوك الانسانى اذا ما كان هذا يؤدى بدوره الى إشباع تلك النزوات والشهوات وعليه أباح السفسطائيون للانسان أن يسير وفقـــا لاهوائه وشهواته لأن ذلك فى مفهومهم هو طريق السعادة والكمال والاستقرار الروحى والمادى .

فلسفة سقراط :

على أنقاض الفلسفة السفسطائية أقام سقراط دعائم فلسفته الأخلاقية وحاول استنباط قواعد أخلاقية ثابتة تلائم كل زمان ومكان . وقبل أن نتعرض لفلسفة سقراط نلقى نظرة سريعة على حياة هذا الفيلسوف كانسان لايعرف الخطأ طريقا له ولم يستطع أحد أن يجد ثغرة مابين منطقه وسلوكه يحاول أن ينفذ من خلالها بالنقد والتجريح فكان سقراط انسانا يعرف كيف يحرر نفسه من قيود الشهوات وكبح جماحها والاحتفاظ بصفاء الروح ونقاء الجسد والتحرر من آثام الخطيئة .

وأمام تلك المبادىء والمثل التى يتحلى بها هذا الفيلسوف أخذ يمجد العقل ويجعله الأداة الحاكمة والضابطة والذى يمكن الانسان من السيطرة على شهوات الجسم وأداة للتحكم فى النزعات والأهواء ونفى سقراط مازعمه السفسطائيون من حيث كون الجسم والطبيعة البشرية مجرد حشد للنزوات والنزعات والغرائز

---

(١) الفلسفة الخلقية (دكتور توفيق الطويل)

والشهوات وانما الطبيعة البشرية فى مفهومه هى جسم وعقل يسيطر على الدوافع والغرائز والنزعات الكامنة فيه .

وانتهى سقراط بأنه طالما أن العقل هو الحاكم والضابط للسلوك البشرى فلا ريب بأنه اذا ماأرست جذور المعرفه الحقة وقوانين الأفعال الكريمةفى هذا العقل فانه بالتالى ستنعكس آثار تلك المعرفة على السلوك البشرى ومن هنا جاء قول سقراط بأن الفضيلة هى وليدة المعرفة .

وعلى هـذا النحو اتجه سقراط لوضع قوانين ثابتة للاخلاق وتغاضى عن الدوافع اللاارادية فى النفس البشرية وأثـرها فى توجيه السلوك البشرى عـامة وانتهت فلسفة سقراط بأن السعادة هى الباعث الأول على مزوالة أعمال الفضيلة التى هى بدورها غاية الحياة الانسانية .

المدرسة الكلبية

أقام « أنتستينز » تلميذ سقراط بانشاء مدرسة تدين بتعاليم سقراط ولكنها وضعت لها منهجا معينا كاد يشوه تلك الفلسفة السقراطية وذلك بأنها استهدفت السعادة الروحية غاية لها تنطلق نحوها بحياة يسودها التقشف ونكران اللذات وكبت الشهوات حتى أنها قد أباحت للناس التجول فى الطرقات يسألون عن طعامهم واتخاذ المعابد مأوى لهم . واستقر رأى « أنتستينز » على أن السعادة يمكن أن يجدها الفرد فى داخل نفسه وأعماقه .

ولا شك أن تلك الفلسفة لايمكن بأى حال من الأحوال أن تكون هى التعبير عن متطلبات النفس والذات الانسانية وانما هى تشوه مظاهر هذا الوجود وتدعو الى التكاسل واهمال المعرفة وقد جاء نقد تلك المدرسة على لسان كل من افلاطون وأرسطو واتهما « أنتستينز » بالحمق وبلادة العقل والقصور فى التفكير .

فلسفة افلاطون الأخلاقية

اتجه افلاطون لوضع معايير ومقاييس ثابتة للاخلاق ليست على منهج سقراط بوصفها قوانين مطلقة متجمدة وانما اتجه الى جعلها أكثر اقترابا من المظاهر المشتركة فى طبائع الانسان .

واعتبر افلاطون أن الأفعال المعبرة عن الخير هى مصدر الوجود والكمال الانسانى كما وأن الفعل الاخلاقى هو مايحمل فى باطنه مبرارته وغايته وبهذا لم يجعل افلاطون الغاية مقياسا لخير الأفعال وشرها وانما الأفعال السامية هى التى تحقق غاية سامية ايضا ــ وهذا التقدير بالتالى يكون عن مدى اتصالها بالخير الشامل والآفاق الانسانية عامة .

ونرى أن افلاطون قد اتجه لوضع مكونات ثلاثة للنفس البشرية :

أ ـ النفس الشهوانية وغايتها اشباع حاجات الجسم المادية

ب ـ النفس الغضبية وتهدف للقتال وتديرها فضيلة الشجاعة

جـ ـ القوة الناطقة وتنشد المعرفة والتعقل وتديرها فضيلة الحكمة .

والكمال النفسى بصفة عامة فى فلسفة افلاطون تقتضى بأن يكون هناك اتزان بين تلك النزعات مع عدم اطلاق العنان لاحداها حتى تطغى وتسيطر على باقى النزعات وتنفرد بالتأثير المباشر على السلوك الانسانى وهذا ما يؤدى بدوره الى السعادة والكمال النفسى وهما غاية الوجود الانسانى مع العمل الدائم المستمر لتنمية كل منهما ولكن على أسس متزنة سليمة هادفة للرقى وتنشد الكمال .

وهكذا فلم يتجه افلاطون نحو جعل اللذة الحسية هى غاية الحياة البشرية أو أن مجرد التصوف والانعزال قد يؤديان الى تحقيق مفهوم السعادة ، وانما عمل الى جعل الخير الأقصى لن يتأتى الا بالمعرفة ثم بالعمل على تنمية ملكات التذوق والاحساس بالجمال والخير والحق وهذا لا يعنى بالتمتع عن اللذات الحسية وانما فى الحدود التى لا تجعلها تنوء بصاحبها عن سنن القواعد الاخلاقية الفاضلة .

فلسفة أرسطو الأخلاقية

تمتاز فلسفة أرسطو أنها فلسفة مؤسسة على الواقع وقائمة على أسس تجريبية مقتطفة من الحياة العملية ومفردات الحوادث اليومية ـ وقد اتجه أرسطو الى أن لكل انسان فى الحياة وظيفة مسئول عنها وعن آدائها وبمقدار دقته فى آدائه لعمله يكون قدر كماله . كذلك يكون مدى تقرب الانسان من الخير الأقصى والسعادة مقترنا بمدى تأثره بالتأمل العقلى والخضوع له .

ولم يتوصل أرسطو الى هذا المنطق الا بعد ما كان هناك تقدير منه لحقيقة الطبيعة البشرية والسلوك اللاارادى واستناده على العقل الذى قدسه أرسطو وجعله العضو المقدس فى الانسان من حيث ادراكه وفهمه للحقائق . فهذه الخاصية فى نظر أرسطو هى المميزة للانسان عن باقى المخلوقات فاذا ما أهمل حياة التعقل والادراك فقد يبعده هذا عن مظاهر الوجود الانسانى بل تقـــربه من الحياة الحيوانية .

وان الفضائل فى نظر أرسطو تكتسب بغرس العادات الفاضلة ثم بالمران والتعود عليها حتى تتـولد العادة التلقائية لممارستها وعليه فالجهل فى نظره ليس عذرا للاهمال أو الانحراف ومن ثم فقد كانت مزاولة التأمل والتعقل والسمو الفكرى خـلال مراحل ممارسة السلوك قـد تؤدى بدورها الى أكمل حالات الوجود الانسانى .

المدرسة الرواقية

تعتبر الفلسفة الرواقية مزيج من فلسفات كل من سقراط وافلاطون وأرسطو - كما وأنها تلتقي بالمدرسة الكلبية من حيث حتمية الاستئصال الكامل للأهواء والشهوات .

وكانت الرواقية صفة تطلق على كل من تتوفر فيه عدة عناصر : -

اولا : القدرة على تحرير نفسه من قيود الأهواء والشهوات والنزوات

ثانيا : الانسان الذى يستهدف أعمال الفضيلة ليس من أجل ابتغاء اللذة وانما باعتبارها واجبا يتحتم عليه

ثالثا : الانسان الذى لايخضع للأفراح والأحزان والآلام

رابعا : الاستسلام لقانون القضاء

ومن هنا كان الحكيم أو الفيلسوف فى مفهوم الفلسفة الرواقية هو الذى ينتهج فى سلوكه منهجا يتحكم به فى زمام نفسه وفى عواطفة وغرائزه ويخضع لقانون الطبيعة المطلق المعبر على أن كل موجود فى العالم يكون مسوقا نحو غاية مدبرة لخدمة الانسان ،ويتعرف بمقتضى قوانين الوجود التى تستند على وجود العقل الذى اذا ما اتبعه الانسان تقرب من عالم الكمال .

وهناك علاقات ثابتة بين الحتمية الكونية والحرية والانسانية من حيث أن الظواهر الطبيعية مقيدة بقوانين عامة وعلى الانسان الفرد أن يخطط سلوكه

وفق ارادته وحـريته الشخصية وأن يوفق كذلك بـين سلوكه وغايته وتلك القوانين العامة التى تسيطر على الظواهر الطبيعية المحيطة به .

كما وأنه ليس هنـاك أى عائق يحول بين الانسان وبين التمسك بالقيم الأخلاقية الفاضلة ويجعلها هى الحابكة لسلوكه العام خلال المجتمع الذى يعيش فيه ـ فمن حيث الواجبات التى تقع على كاهله فهو بمفرده صاحب الارادة فى أن يقوم بها على خير وجه فهذا من الأشياء التى تحرره من الألم .

كذلك عليه أن يخضع للقوانين العامة التى تسير الكائنات على السواء وتتقبل كل ما يحل به من سراء وضراء بنفس راضية وعزيمة لاتجعله يحيد عن القيم التى يؤمن بها ويتحلى بمثلها وكأن الآلام التى تمر بالانسان ماهى الا تجـارب قاسية وظروف اضطرارية تؤدى فى النهاية الى ضبط النفس وكبح جماحها حتى تزول تلك الآلام وتمـر بدون رواسب تذكر وكأن تصوير الفلسفة الرواقية للألم تشبيها للأمواج العاتية المضطربة التى تتلاطم بصخرة راسخة فتغطيها بالمياه ثم تنحسر عنها وتتركها كما كانت صخرة عاتية ثابتة لايعتريها تغيير يذكر ولاتتأثر بتلك المؤثرات الوقتية .

وعليه اذن فالرواقى الصحيح هـو أن يكون منطقيا وعالما طبيعيا ومائلا للخير وأن يجعل الأخلاق تقود الحوادث والسلوك وأن يحتقر الجانب الحسى فى الطبيعة البشرية وأن يتطلع الى مفاهيم عليا يوجه نحوها سلوكه فان فعل هذا حقق انسانيته ومجد كرامته وارتقى بنفسه الى انسان متكامل تلتقى فيه جميـع الفضائل والمفاهيم الخالدة .

المدرسة الأبيقورية

تعتبر المدرسة الأبيقورية أن اللذة هى غاية الانسان من حيث كونها مصدر الخير وعلى الانسان ألا ينغمس فيها وألا ينقاد الى مصادرها باندفاع وبلاتروى والا انعكست آثارها من سعادة وهناء الى شقاء وعذاب .

ويتحتم على الانسان فى تلك المرحلة أن يتخلى عن اللذة والمتعة الوقتية ويضحى بها من أجل لذة دائمة تعقبها. واللذة فى نظر الفلسفة الأبيقورية هى البعد عن الألم وتجنبه ثم الاندفاع الى المتعة ولكن تحت سيطرة العقل والتروى . وتؤمن كذلك بحقيقة واضحة ذلك بأن الألم ينشأ أثر تعدد وكثرة الحاجات - ومن ثم فمن الأفضل للانسان أن يطرد من أفكاره كل ما يثير فى نفسه من خلجات أو انفعالات تبعث الألم فى النفوس ، وعلى قدر تجنب الانسان للأفكار السيئة وبمدى احتفاظه للأفكار التى تتناسب مع قدرته وطاقاته وامكانياته كلما اقترب من جوهر السعادة بمضمونها الحقيقى الخالد .

وقد توصلت الفلسفة الأبيقورية الى أن البساطة فى الحياة والاعتدال واستقرار النفوس والسيطرة على الرغبات والغرائز الجامحة وعدم السماح لها بالتحكم فى السلوك الانسانى ما تجعل أمام النفوس طلائع الخلاص من مظاهر الألم والأوهام وتعلو بها عن آفاق الضلال والانحراف والتعاسة .

وكلما عاش الانسان فى ذكريات الأيام السعيدة الماضية كلما قلل من

مظاهر الألم التي تحاول أن تسيطر على وجدانه وعواطفه ، وعلى الانسان التخلي عن لذة عاجلة لها من الآثار ما يتبعها من ألم أكبر وعليه أن يتحمل الآلام الطارئة اذا ما كان يستتبعها لذة معينة . فالانسان يستمتع بذكريات اللذات الحاضرة ويستبشر باللذات القادمة . بحيث يتحتم عليه أن يكون معتدلا لأن الاعتدال في مفهومه فضيلة أخلاقية،لأن الانسان يمكنه الوقوف عند حدود اللذات التي اذا ما تعداها نتجت عنها آلام وشقاء .

مما سبق نستدل على أن تاريخ الأخلاق ماهو الا امتداد لفروع الفلسفات الانسانية . استهدفتها بحوث الفلاسفة والمفكرين من أجل خلق قيم ثابتة أو معايير يستدل بها على مظاهر هذا الوجود ، وكذلك على مدى تكامن التقائهم الجماعي تحت ظلال تلك المفاهيم والنظريات.

ولو تتبعنا مراحل تطور تلك النظريات الأخلاقية منذ وجودها ومرورها بمراحل الفكر اليوناني حتى انبثاق النزعات الخلقية في عصر النهضة وتضارب النظريات ما بين الحدسيين والتجريبيين والعقليين وظهور الاتجاهات العملية في مجال الاخلاق والفلسفات الوضعية الى آخره — فما كان ذلك هو مجال بحثنا وانما نكتفي بما اقتطفناه من الفلسفات اليونانية المتباينه باعتبارها نابعة من دولة كانت نقطة ارتكاز ومصادر انبعاث اشعاعات فكرية خالدة مازالت البحوث والنظريات الجديدة تعود اليها وتستند على أسسها وتعاليمها وان كانت تختلف معها في مظاهر السلوك تبعا لتغاير الظروف والأحوال الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها :

ولا يمكننا أن ننتقل من تلك المرحلة الى أخرى متقدمة عنها دون ان نتعرض لموقف الفلسفات الاخلاقية والديانات السماوية وانني لا اجد مجالا يوقفنا في

الاسترسال فى هذا البحث أجدى من التعرض للالزام الخلقى فى الدين الاسلامى نظرا لما جاءت به تعاليم القرآن فى مجال الأخلاق من قيم عظيمة وآفاق خالدة ليس بالنسبة للحياة العملية للمسلمين فحسب وانما للفئات البشرية بصفة عامة .

مبدأ الالزام

لاشك أن مبدأ الالزام عنصر أساسى أو محور تدور حوله القواعد الاخلاقية من حيث كونها عدة قواعد تلزم الأفراد باتباعها بأى صورة من الصور .

وبالقضاء على فكرة الالزام يقضى بهذا على جوهر الحياة الانسانية المستقرة التى تستهدفها الأخلاق نحو تحقيقها فاذا ما انعدم الالزام ترتب عنه انعدام المسئولية وبالتالى تتشتت الآمال من حيث سمو الحق واعتلائه فى سماء البشرية .

وحول تلك الفكرة الالزامية يتوقف مدى فاعلية واستمرار أى نظام من النظم — فاذا لم تستتبع أى قاعدة أو قانون اداة الزامية مادية أو معنوية فان هذا ولاشك قد يؤدى الى تشتت تلك القواعد والأسس فى أجواز الفضاء اللانهائية ومن ثم فاننا لانجد أثرا لكثير من المذاهب والمدارس والفلسفات الأخلاقية التى توالى ظهورها على مر الأجيال ولم يبق لها ذكرى أو قواعد مسطورة بينما نجد كثيرا من القوانين والقواعد الأخلاقية الوضيعة لها من الفاعلية والمقدرة على الاستمرار والبقاء وارغام الفئات على الرضوخ اليها وذلك لما يتبعها من فروض عقابية لمن ينحرف عنها أو يتمرد عليها .

كما واننا قد نجد بعض الفلاسفة يتجهون الى الادعاء بامكان قيام قواعد أخلاقية بدون جزاء ومنهم الفليسوف جويو ويستعيض عن فكرة الالزام الجزائى بفكرة التقدير الفنى المنبعث من النفس البشرية تحت توجيه الضمير ويستند فى ذلك على تربية حاسة التذوق : الفنى وملكات الاعجاب بالانفعال الصالحة وميل النفس البشرية نحو التمسك بالخصال الحميدة .

وقبل أن نتعرض لفكرة الالزام فى الدين الاسلامى سنحاول أن نقف على فكرة الالزام الخلقى المستمد من بعض المذاهب الاجتماعية والفلسفية .

* * *

الالزام الخلقى:

من الواضح أن هناك فى الطبيعة الانسانية من الفطرات والاستعدادات والميول مايمكن تشكيلها وتطويرها بصورة تقربه من الكمال وتسمو بوجوده الى آفاق التحرر من قيود الشهوات والانقياد وراء الغرائز والسقوط فى أعماق الرذيلة والانحراف .

ولكن لخلق تلك النظم الضابطة للسلوك الانسانى يجب أن يكون هناك الزام خلقى يحد من الطغيان الغريزى ، وبعبارة أخرى توضع القيود التى لها من الامكانيات مايمكنها من مقاومة الرغبات الجامحة والأهواء الشاردة، وتتمكن من توجيه السلوك الانسانى نحو ماتقتضيه الظروف والأوضاع الدينية والاجتماعية والقوانين الوضعية .

وبالتمعن فى تلك القيود نجد أنها جميعها تلتقى نحو التطلع الى الكمال ومزاولة أعمال الفضيلة والخير ونحو خلق مثل عليا ومفاهيم خالدة تعتبر نبراسا وهاديا للسلوك البشرى ومنارا يهتدى به الانسان فى انطلاقه نحو التطور والارتقاء بمظاهر حياته الاخلاقية .

ويتمثل الالزام فى عدة نقاط :

اولا <u>الفروض والقيود الاجتماعية</u>

تتمثل تلك المفاهيم فى مجموعة القيم والمبادىء والمعتقدات والقوانين والآداب الشائعة فى نطاق البيئة الاجتماعية والتى يقصد بها خلق فضائل أخلاقية تكون بمثابة تعاليم للأجيال المتتابعة والتى عن طريقها يتمكن الانسان من الوصول الى المثل العليا المتكاملة ، وينسق بقواعدها مناهج حياته ومصيره وعلاقاته العامة .

ومن يشذ عنها يعتبر خارجا عن الانسجام الجماعى ويشذ عن الكيان المحيط به حتى يصبح لمن يحيطون به حق استئصاله وابعاده عن حياتهم .

هذا بعكس مايعود عليه فى حالة التفاعل مع البيئة والاستجابه لتقاليدها وتعاليمها فهذا ما يخول له حق الاعتلاء والتقدير من قبل افراد جماعته .

ثانيا <u>الالزام القانونى:</u>

نحو هذا الالزام أرى ان نقف وقفة عابرة من حيث القانون والأخلاق ومدى الترابط والتلاقى بين قواعد كلاهما وبالتمعن فى مضمون كل منهما

نجد أنهما يلتقيان معا حول القيم والمفاهيم الانسانية — فكل منهما يدعو الى الامتثال لنواحى معينة فى محتوياها تستهدف الاستقرار والكمال والسعادة .

أما من حيث مصادر كل منهما نجد أنها تشترك فى المنبع الطبيعى أو العرف المتفق عليه من حيث حساسية وجودها وباعتبارهما ضرورة من ضرورات الحياة المستقرة والهادئة باختلاف مظاهرها، وكمبادىء للعدالة وباعث لخلق الشعور بالتضامن والتوفيق بين الافراد ويستهدفان مثلا عليا تستوحى من الطبيعة وتكمن فى سر الوجود .

فلو تتبعنا مراحل انبعاث فكرة القانون الطبيعى من الفكر اليونانى نجد أنه انبثق على أثر تشابه سلوك الفئات البشرية عامة فى المجتمع بالرغم من اختلاف ميولهم ومشاربهم ومناطق وجودهم وظروف معيشتهم ولكنهم يلتقون حول محور واحد من حيث الصفات السلوكية هذا ماجعلهم يصلون بتفكيرهم على أن هذا التشابه يعود الى وجود مبادىء أساسية مثالية تسود فى سائر المجتمعات وتلك المبادىء تتخلص فى الضمير والشرف والاستقامة والفضلية الى غيرها من مكارم الأخلاق واشرفها .

وما لبث هؤلاء الفلاسفة أن وقفوا على تشابه وتلاقى نتائج تلك المشاهدات حتى انتهوا بتفكيرهم الى استخلاص علة ثبوتها وعدم تحولها وتغايرها — ومن ثم ابتدأت ملامح قانون أبدى راسخ لايستبدل يأمر بالعدل والاحسان والتآخى وينهى عن الشر والانحراف والأنانية .

ومن هنا تسلم فقهاء الرومان هذه الفكرة وانتهوا بوصف القانون بأنه الهادى الى سبل العدل والخير والاستقامة واعطاء كل ذى حق حقه .

والقانون الطبيعى كما عبر عنه الاستاذ « محمد على عرفه » فى فلسفة القانون « انه مجموعة المبادىء التى يهتدى اليها المرء بفطرته وينساق اليها بارشاد عقله وهدى سليقته »

ولايتسع المجال هنا لسرد مراحل تطور ونشوء القانون الطبيعى وانما ينتهى بأن الانسان بطبيعته يميل الى استنباطها والرضوخ لتعاليمها وقواعدها والاهتداء بضيائها نحوتنظيم علاقاته من حيث فعل الخيروا حترام النظم والابتعاد عن الأفعال التى ينفر منها بفطرته أيضا لأنها إما أن تكون ضاربة بتلك المبادىء وإما أنها قد تعود عليه بضرر وإذاء للنفس .

ثم بالانتقال من القوانين الطبيعية الى القوانين الوضعية وهى ماتخصنا فى مجال بحثنا هذا نجد أنها فى صورة قوانين وضعية تفرضها السلطة السياسية فى المجتمع بصورة عقوبات تفرض على كل من يشذ عليها أو ينحرف بسلوكه عنها من أجل خلق الاستقرار والنظام فى الهيئة الاجتماعية الحاوية له وهنا ما يمكن ان نضفى عليه اسم القوانين الوضعية الاخلاقية .

ثالثا العقيدة الدينية :

وتتمثل فى الامتثال للفروض والتعاليم الدينية لما لها من قدرة على الهداية والتقويم وخلق الالتحام الروحى والمادى بين الفئات الخاضعة لها .

ولا يمكن أن تتبلور مظاهر تلك العقيدة فى النفوس البشرية وتنعكس آثار قيمتها وتعاليمهافى سلوكها الا اذا كان هناك ايمان بالامور التى لاتدركها الحواس. كالشئون الالهية والعوالم الروحية والايمان بجميع الأنبياء والمرسلين

والاعتقاد بخلود الروح واليوم الآخر اعتقادا لا تشوبه شائبة من شك - ومن خلال هذا الايمان يجب أن يكون هناك تقربا ذاتيا نحو العمل الصالح فى شتى المجالات والتى تنص عليها التعاليم السماوية والرسالات الدينية التى ارسلها الله للناس هاديا وموفقا ومصلحا لهم ولشئونهم سواء أكان هذا فى الدنيا أو الآخرة .

وعليه فليس هناك سند أقوى من الرجوع الى النزعة والعقيدة الدينية لدفع الفئات الشعبية نحو الامتثال للتعاليم والقواعد الأخلاقية التى هى جزء لا يتجزأ من التعاليم الدينية التى تعتبر هاديا ونبراسا للانسانية عامة .

وكما أن الامتثال للعبادة والخضوع للايمان لهما فى الواقع من المقومات ذات الآثار الفعالة الخالدة من حيث مدى تأثيرها على السلوك ومن حيث كون الانسان مخلوقا به ثغرات من الضعف يحتاج لتكميلها من الرعاية والهداية فنراه ينزع بطبيعته لكى يستمد من قدرة الخالق مايقوى به نفسه ويكمل به مظاهر ضعفه وقصوره . وهكذا أيضا الحال فنجد هذا الانسان ينزع بغريزته نحو القواعد الأخلاقية يلتمس منها العون ويهتدى بقواعدها على أن التمرد والانحراف أمور تتنافى مع الطبيعة الانسانية السالمة وتنفر منها النفوس المتكاملة السليمة .

وبالتمعن فى تعاليم القرآن نجد أنها تنتهج منهجا موفقا من حيث مبدأ الالزام الخلقى للفئات البشرية ، فقد جاءت التعاليم فى كتاب الله واضحة شفافة يسهل على العقول تداركها واستنباط تعاليمها — وقد جاءت التعاليم الاخلاقية فى القرآن بصورة دقيقة متكاملة تستجيب لمتطلبات الطبيعة الانسانية بغرائزها

المتباينة . عادلة فى حـدود طاقات وامكانيات النفس البشرية ومدى قدرتهـا فى السيطرة والتحكيم فى الدوافع والغرائز والميول المتعددة ثم تركت للنفـوس حرية التدبر وحرية الاختيار والتصرف فى نطاق تلك التفاصيل وتبعـا لتغاير ظروف الحياة .

وواجب المؤمن حيال هذا أن يتبين معالم طريقه ويندفع الى مايقربه ويتفق وأوامر الله . وعليه بالتـالى أن ينوء عن الأعمال التى تجعله عرضة للانزلاق فى الرذيلة والانحراف .

وهكذا نرى الانسان وقد أصبح ملزما فى سلوكه بتلك الفروض الدينية والاجتماعية والسياسية التى تصدر عن خارج ذاته — وقد يكون هذا الالزام نابعا من عقله وضميره الكامن فى أعماقه يفرض على نفسه أن يتروى فى سلوكه ويخضع لعقله المفكر وحسن تقديره بحيث يزاول أعمال الخير ويبتعد عن كل ماهو فى مضمونه شر .

وهذا الالزام النابع من الذات الانسانية يمـكن ادراكه وتنميته بالممارسة والاختيار والارتقاء بحواس التذوق المعبر عن ملكات عقلية تستهدف معايرة كل المظاهر التى تحيط بالانسانية .

الانسان كائن اجتماعى

ليس ثمة شك أن هناك من يجهل ما فطرت عليه الطبيعة البشرية من حب الألفة والمعاشرة ، كذلك ماجبلت عليه النفس من ميل طبيعى وغريزى نحو الاندفاع والاندماج فى الحياة الاجتماعية ، فليس هناك أقسى على النفس البشرية من حياة العزلة والانفصال عن المجتمع .

وتقوم تلك العلاقة التى تربط الانسان بالجماعه الحاوية له على عدة روابط تتمثل فى روابط اللغة الواحدة والعادات المشتركة والقيم التى يستجيب لها الجميع برغبة جماعية هذا الى جانب ارتباطهم بولاء واحد وخضوعهم لحكومة قومية واحدة .

والانسان ككائن نابض بالحياة له بعض المميزات والخواص التى يختص بها دون باقى المخلوقات وان كانت توجد فى بعضها الا أنها تكون فى صور ناقصة غير متكاملة الجوانب والأركان .

فنجد الحيوان محكوما بغريزته الفطرية بينما الانسان محكوما بعقله وذكائه وهما يعتبران عاملان أساسيان نحو ضبط السلوك البشرى وتعديله وتوجيهه .

وقدرة الانسان على النطق واخراج حروف متراصة ذات معان معينة

جملته قادرا على الاتصال بباقى عشيرته بلغة داركة يسهل التفاهم بها فى نطاق بيئة بحيث يتمكن الجميع من تناقل الأفكار والمعانى ، وتوارث التراث الفكرى من جماعة لاخرى ومن جيل لآخر ما مكنه من خلوده وبقائه على مر الأجيال وربط الأفكار والمعرفة برباط متصل وثيق .

والانسان قادر على نقل الفكرة من مجرد الاحساس بها الى الواقع المادى ثم استخدام نتاجها بصورة عملية متطورة حتى تمكن من السيطرة على الظروف الطبيعية وتسخير مظاهرها من أجل استكمال وجوده واسباب رفاهيته .

ولقد كان وجود الانسان بتلك الملكات ظاهرة طبيعية ولكنها فى الواقع تحتاج لظروف وامكانيات معينة لتمكين الانسان الفرد بالاحتفاظ بها وتطويرها — ومن هنا جاءت حتمية الالتقاء الجماعى لكى يصبح الفرد كائنا اجتماعيا . ففى اللقاء الجماعى وحده يتمكن الانسان من تنمية الصفات والمظاهر التى تجعل منه انسانا حقيقيا وتؤكد تلك الحقيقة — كما وأن تلك الصفات التى تخلد الكيان الانسانى السامى من تسامح ومحبة واحسان ورحمة وايثار وتضامن ... الخ . لا يمكن بأى حال من الاحوال أن تنجلى وتبدو واضحة راسبة ما بين جدران العزلة والرهبنة وانما لابد من أن تتوافر لها الظروف المعينة والبيئة المناسبة التى يمكن أن تتداول فيها تلك الصفات الخالدة .

وعليه فالبيئة الاجتماعية هى الأداة التى يكتسب بها الفرد وجوده وعاداته وتصبح له شخصية انسانية خاصه هى انعكاس لبيئتة ومجتمعه .

وعليه فالتكوين الاجتماعى يكون بصورة متكاملة اذا ما كانت تلك الجماعات المكونة له ترتبط مع بعضها بعلاقات، منتظمة حتى تتمكن من خلق الوحدة الاجتماعية وهذا لن يتأتى الا عن طريق الالمام بالمعرفة الأنسانية التى يجب أن تتضمن معرفة الأنسان لنفسه ثم معرفته لبيئته .

الفرد فى المجتمع

واذا ما نظرنا الى الغريزة الاجتماعية نظرة أعم وأشمل نجد أنها لا تقتصر على مجرد ماانطبع فى النفس من ميل فطرى للاندماج فى وسط المجتمع فحسب وانما تمتد الى أبعاد أعمق فى داخل النفس البشرية تتبلور فى استعدادات معينة لتلقى تعاليمه والتأثر بتقاليده وأساليبه ومفاهيمه العامة والخاصة . وبالرغم من أنها قد تحد من حريته وانطلاقه واستقلاله ولكننا نجده منقادا نحوها بصورة لا إرادية .

ومن الواضح أن مهمة الفرد لاتنتهى بمجرد انضمامه الى بيئة اجتماعية وانما تمتد الى آفاق أبعد من هذا وترمى الى غرض أسمى بكثير ألا وهو الاندماج الجزئى والكلى فى هذا الالتقاء الكبير مكونا كلا متكاملا بحيث يتبادل معه التأثر والأتصال ويستمد من المجتمع مظاهر استكمال وجوده ويمده كذلك بمظاهر الأستقرار والكمال ويصبح الكل وحدة متماسكة محكمة النظام .

ومن هنا جاء أثر اعتماد الفرد فى تدبير شئون حياته المتباينة على نظام الجماعة فى حد ذاتها من حيث التأثير على عقليته وميوله وطبعها بطابع الجماعة السائد بميزاتها ولونها الخاص ، ومن خلال الصلات والعلاقات القائمة بين الفرد والبيئة الأجتماعية التى يعيش بها تنبثق مظاهر المعرفة والتأثر الوجدانى وتتبلور معالم الغريزة الأجتماعية التى تنعكس بالتالى على كثير من مظاهر السلوك الأنسانى الغريزى الذى يتمثل فى استعداد الفرد وميله لحب العشرة والأندماج الكلى والجزئى مع باقى عشيرته .

وطالما وان الآداب العامة والقيود المنظمة للسلوك الانسانى خلال بيئته الأجتماعية هى وليدة حتمية لهذا الألتقاء لمالها من قدرة وامكانيات للحفاظ على استقراره واستمراره وتبعا لكون تلك النظم والقوانين قد استقرت بناء وعلى رغبة الافراد وتقبلهم التلقائى للتقييد وكبت بعض حرياتهم فهذا ولاشك قد يبين لنا مدى اصرار الانسان للالتقاء الجماعى ، وخضوع الأفراد لآداب المجتمع وقيوده التى تفرض عليه لتعد أقوى المظاهر والإستدلالات للغريزة الإجتماعية الكامنة فى النفوس البشرية ومدى اختصاص بنى الانسان بتلك النزعة المقدسة المتمثلة فى قابلية الفرد لاعتناق تعاليم المجتمع وقابليته نحو الاستجابة لعقائده وعاداته المتوارثة .

ومن هنا يجب الا ننظر للفرد على أنه مجرد كائن منعزل عن المجتمع وانما كعنصر صغير يتفاعل مع كل كبير ، وباعتبار أن الخلق الاجتماعى لا يمكن أن يتم أو يتبلور الا بتفاعل الفرد مع المجتمع الذى تكون نتيجة تلاقى افراده فى تجمعات تربطهم أهداف لها من الثبات والاستقرار بحيث جعلهم يشعرون بالتجانس وحتمية الامتزاج الروحى والمادى من أجل تحقيق أهداف مشتركة يتمثل فى اعتقادهم بأن الخير الأعلى لن يتحقق الا بقدر تقرب سلوك كل منهم الى أعلا درجات الكمال والارتقاء ، وان اختلفت تلك الصورة التى يختص بها مبدأ الخير الأعلى فى حد ذاته من حيث وجوده المادى من مجتمع لآخر ألا أنها تلتق جميعها فى جوهرها السامى من حيث الأفعال المستلزمة لتحقيق الكمال المثالى الهادف الى خير الانسان ورفاهيته والذى هو بالتالى غاية الوجود الانسانى والغاية العليا المتكاملة لجهوده وطاقاته على مر الأجيال والسنين .

وعلى ضوء هذه الفكرة المبسطة عن حقيقة الانسان الاجتماعية تتحدد

معالم العلاقات العامة والنظم التى تربط مابين أبناء المجتمع الواحد وتحدد معالم سلوك كل منهم حيال بيئته والواجبات الانسانية العـامة التى يتمكن باشعاعاتها من تحقيق حياة ممتعة متكاملة لكل انسان وشعور حقيقى بمزايا الانسانية فى أعدل صورها وأكملها وكذلك يتمكن من تحقيق كافة القيم الانسانية والمفاهيم الاجتماعية والروحية فى نطاق المجتمع .

ومما لا جدل فيه بانه لـكى يتم خلق ذلك الاستقرار والتكامل فى نطاق البيئة الاجتماعية يتحتم لتلك النظم والقوانين الهادفة لتنظيم العـــلاقات الداخلية والتوفيق بينها واجبار الفئات على احترامها والرضوخ لها أن تكون لديها من المرونة ما تمكنها من الاستجابة للغرائز الانسانية بتباين صورها وتغايرها من فرد لآخر ومن بيئة لأخرى .

فإذا ما كانت تحتوى فى مضمونها على ما يحقق المتطلبات الأساسية للانسانية فلا شك أنها ستقترن بالدوام والاستقرار والفاعلية ويضفى عليها انماط من الوقار والثبات ما يمكنها من تحقيق غايتها السامية وهدفها الابدى .

ولكن يحق لنا أن نقف وقفة قصـــيرة لنتساءل . ماذا بعد أن تدارك الانسان مكوناته الفطرية وميوله الغريزية واستعداده للاستجابة الى النظم التى توفق بين مطالبه وبين الوعاء البشرى الحاوى له ، وكذلك عن مدى تلاحمـــه بالقيم الاخلاقية الانسانية التى تلاقت جميعها للسمو بالانسان ذاته باعتباره هدف الحياة وكيان الوجود وغايته .

وقد ظل الانسان فى صراع دائب كلما شعر بالاستقرار فى الحياة . فاما تعثر وتفرض الحيـاة نفسها عليه واما يسـيرها على أثر دوافع وميـول

نابعة من ذاته . . .

وهكذا كان صراعه دائما مستمرا وكفاحه لا ينتهى منذ وجوده الاول الى يومنا هذا .

ومن خلال بحثنا هذا سنتناول بصفة افتراضية الصـــراع الانسانى على مرحلتين .

أولا : الصراع الانسانى المادى

ثانيا : الصراع الانسانى الروحى

الصراع الانسانى المادى

فالانسان منذ وجوده فى صراع دائب ومحاولات مستمرة من أجل تطوير وسائل معيشته المادية وخلق سبل الرفاهية التى تعبر فى حد ذاتها عن معان نسبية تختلف من عصر الى عصر وتتفاوت من مجتمع لآخر . وكانت استجابات الانسان فى الوقت نفسه للحواجز المماثلة لبيئته الذاتية متماثلة طبقا للحاجات المادية الطارئة . ولا ريب انه عبر تلك الصراعات كان الانسان يتصدى للظواهر الطبيعية والأحداث العابرة محاولا ان يستشف خلالها هذا الوجود الشبه مستقر والذى كان ينطلق نحوه اما بصورة ارادية أو لا شعورية .

وتاريخ البشرية فيما قبل التاريخ يعبر عن المرحلة الاولى للحيـــاة الانسانية مرحلة تتصف بالبدائية اذ كان الانسان لا يزال يعيش أينما وجد سواء فى الغابات الحارة او الوديان معتصما بالأشجار خشية الضوارى ، واستجابة لحاجته ومتطلباته الاساسية متخذا من فاكهتها طعاما له

واننا لو تتبعنا المخلفات والآثار التى تركتهـــا البشرية على مر السنين والأجيال نجد أنها تمثل صفحات مدونة تحوى سطورها على سجلا معبرا عن تاريخ هذا الصراع ومراحل تطوره .

فنجد أن هناك مخلفات أثرية تركها الانسان الأول « الانسان الناقص »

منذ آلاف السنين فى أوربا كالأحجار الصوانية التى شقت لتصلح الطرق أو الحرب ، كما وجدت فى جهات أخرى بعض الأدوات التى كانت تستخدم خلال تلك العصور فى الأعمال اليومية ومستلزمات الحياة الأساسية .

وكلما ابتعدنا عن تلك العصور [illegible] التى خلفها الانسان على أنماط أكثر تقدما وأدل مهارة من حيث كونها أدوات تمتاز بتنوعها ودقتها كالمثقاب والمقشطة والسكين والرمح والسهم والبلطة (*)

[illegible] أن [illegible] التى [illegible] منذ [illegible] ألف سنة [illegible] أن [illegible] على أن الانسان [illegible] كان [illegible] على الأحجار [illegible] [illegible] [illegible] وثلاثين ألف [illegible] وذلك من حيث الادراك [illegible] والتعاون وميله نحو الرفاهية — فتلك المخلفات تدل على أن انسان روديسيا كان يعرف العقد [illegible] الصيد وكان سلاحه الرمح والأحجار المقذوفة .

وبالانتقال الى حفريات العصر [illegible] خمس عشرة ألف سنة نجد أنها تدل على أن الانسان قد أدرك الكتابة والنقوش على الصخور والعظام [illegible] بعض آرائه واحساساته .

(*) نشأة الحياة والحضارات الكبرى (عبد الله حسين)

وما لبث أن ابتدأ الانسان فى هجرة منطقة وجوده وابتدأ يحتك بما يجاوره فكان احتكاكه بالبحر والأنهار أدى الى معرفة السمك ثم توصل الى اشعال النار بطريقه بدائية ليشوى عليها السمك واللحوم حتى توصل الى استخدام التراب الساخن واتخاذ الطين غطاء للأخشاب والأوعية وقاية لها من النار ثم توصل بعد ذلك لاستخدام الطين فى البناء بعد وضعه فى النار وهكذا حتى جاء العصر النيولبتيكى (عصر الحجر الجديد) حينما أدرك الانسان الزراعة واستنبات الأراضى واستئناس الحيوانات وابتدأت الجموع البشرية تتلاقى تبعا للموارد الطبيعية ومصادرها وخرج الانسان من مجتمعه البدائى والذى كان يستعمل فيه الادوات اللازمة لمعيشته من الحجر على أساس أنها مواد يبرز وجودها فوق سطح الأرض وتطورت تلك الأدوات من مجرد صنعها بالحك وكونها خشنة غير مصقولة وضخمة لا فن فيها والسلاح مجرد شحفة من الحجر تستدق من الطرف حتى أصبحت تصنع بالضغط عوضا على الحك وتطورت تلك الأدوات البدائية الى القوس وآلات تثقيف العيدان والرماح والحربة والابرة العاجية (١) وكانت بصورة أكثر تقدما دقيقة فى صنعها على نقيض صناعة الأدوات فى المدة الاولى من عصر الحجر الباليولتيكى القديم .

وهكذا تعاقبت العصور ولا يتسع مجال بحثنا هذا للاسترسال فى مظاهر التطور الذى لاحق هذا التعاقب والجهود البشرية التى بذلت خلاله ولكننا نستدل على أنه عند ظهور الانسان الأول وهو فى صراع من أجل تطوير امكانياته ووسائل معيشته المادية والتى تعبر فى مضمونها عن مدى اصرار الانسانية نحو التطوير والارتقاء والتسامى بوجودها من ما هو أدنى الى آفاق

---

(١) مقالات للدكتور سليمان حزين

تعاوها وتتميز عنها بالرقى والتقدم . وان كان هذا يعبر عن شىء فما هو إلا بلورة وتأصيل للنفس البشرية وغريزتها فى الارتقاء واصرارها على قهر الصعاب وتذليل العقبات التى تعترض طريقها وتعرقل تقدمها وانطلاقها نحو حياة أفضل متكاملة وفى الواقع أن تطور النضال الانسانى منــــذ وجوده الأول حتى يومنا هذا لا يمكن أن تختص بنتاجها فئة معينة وانما هى فى الواقع نتاج لجهود مشتركة ساهمت فيها البشرية على مر السنين والأجيـال على الرغم من تفرقها فوق هـذا الـكوكب وبتباين حضاراتها وثقافتها ومدنيتها .

ومن هنا نستدل على أن الانسان منذ وجوده وهو فى صراع ومحاولات جادة من أجل تحقيق واقعه المادى وتسخيره من أجل اشباع وتحقيق متطلبات وجوده المادية .

الصراع الانسانى الروحى

ظل هكذا حال الانسانية من حيث بحثها وراء تطوير واقعها المادى ، وجعل المادة وانعكاساتها الملموسة مجال للبحث والتفكير ـ الى أن ابتــــدأ فى البحث وراء حقيقــة من هو ؟ ولماذا وجد ؟؟ ولماذا يشقى وما هى الحقيقة التى تعبر عن وجوده ومطالبه ؟ وما هى غاية وجوده والصور التى تتكامل بها مظاهره وتبعث فى نفسه بالاستقرار والهدوء والسعادة . ؟

تلك الاسئلة التى اتجه نحوها الفكر الانسانى بالبحث والتمحيص من أجل ايجاد واستنباط حلول لها لتبعث الاستقرار فى النفوس والراحة فى الصدور ، فنجد انها قد خلقت تشتيتا فى الافكار واضطرابات فى النفوس نظرا لوقوف الانسان أمامها وقفة عاجزة محدودة لا يجد أمامه إلا بعض التفسيرات الفطرية المحدودة وان كانت الثغرات الموجودة فى النفس البشــــرية القلقة المتلهفة للمعرفة واليقين .

ومن هنا أبتدأ الفكر الانسانى فى محاولات جادة مستمرة لاستنباط مظاهر وجوده وتعليل هذا الترابط ما بين ذاته المادية المعبرة عن الانعكاسات الخارجية للمادة والطبيعة وكيانه الروحى المعبر عن المطلق والروح واللامحدود . واعتمد الانسان فى هذا المنهج على عقله واحساساته ووجدانه ولكنه لا يجد لها الطريق الحقيقى أو الاستدلالات المنطقية وانما يدرك فى أعماقه أنه يعيش فى عالم مجهول

تترامى أطرافه الى ما لا نهاية ، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يتنكر أمام تلك الحقيقة أو يقف حيالها بالسلبية والجمود وانما استلزم عليه واقعه ان يجد لها من التفسيرات والمدلولات المتكاملة المعبرة بوضوح وعمق وصراحة .

ومن ثم فطالما أن تلك النتائج لا يتوصل اليها الانسان الا عن طريق التعقل والمعرفة والاحتكاك فماذا يفعل هذا العقل فى عالم لا نهائى مضطرب تموج منه التفسيرات والتعليلات والبراهين وتتضارب فيما بينها ويستند كل منها فى منهجه على قواعد ونظم معينة تخضع كل منها لظروف معينة وتتفاوت من مجتمع لآخر وعن بيئة لاخرى حتى وانها تتفاوت وتصطدم فيما بينها خلال المجتمع الواحد فحسب .

ومن هنا تنبثق حتمية خلق وتشكيل قيم ومفاهيم عامة لهـــا من المرونة ما يجعلها قادرة على تكييف نفسها طبقا لاحتياجات البشر وطبائعهم المتباينة وأن تتضمن فى محتواها اجابات منطقيـة لتلك التساءلات التى تسببت فى اضطراب النفس البشرية وتمكن الانسان الفرد من التعبير عن ذاته وتوصـــله الى الآفاق والحدود التى بموجبها يتمكن من تحديد مكانه فى الأرض ، كذلك لها القدرة على ازالة كافة العقبات التى تعترض طريق التقدم الروحى للبشرية عامة .

كما وانه لـكى تكون تلك القيم بها تلك القدرات باعتبارها معايير للمنهج الفكرى للانسانية والحكم عليه من حيث مدى تحقيقه للغاية المنشودة وبأساليب موفقة سليمة بحيث أن تكون معبرة فى نفس الوقت عن ذلك الجانب الوجدانى الخالد ذى الخصائص المعينة والمطالب الذاتية وتتفق أساليبها وطبيعة هذا الوجدان وتؤدى بدورها نحو خلق شعور بالتضامن والالتقاء حول المصالح المشتركة بين جميع الناس ويمكن أن نقف وقفة قصيرة لنتساءل هل توافرت تلك القيم والمفاهيم

المتكاملة للانسانية على مر السنين او حددت لهم أبعادا ومناهج للتفكير في كافة مظاهر الحياة ؟؟ وبالطبع لا يكون لدينا اجابة على هذا السؤال إلا بالنفي ، لان الانسانية منذ وجودها الطبيعي تعيش في سلسلة من الطرائق ومناهج التفكير من أجل ايجاد الحلول لمسائل تنظيم حياتها على القوة التي تحقق لها سعادتها ومصالحها

ومن هنا تتعاقب الفلسفات وتتقاطر من كل منها دعوى بأنها الطريق الأمثل الذي يؤدي بأتباعه الى السعادة ولنا الاستقرار النفسي وتحقيق الكمال لصاحبه وكل منها ينظر الى تلك السعادة بزاوية معينة ورأى خاص ويستهدف بمنطقه اشباع نزعة معينة في داخل النفس وعن طريق الاشباع تسود تلك النزعة على باقي النزعات وتصبح النفس أسيرة لها خاضعة لمتطلباتها

ولكن هل الطبيعة البشرية واحدة لدى الناس ؟ وهل المطالب الانسانية تتلاقى جميعا على نمط واحد لا يتغير وهل يكتفي الانسان بما هو عليه لا يتطلع الى المزيد ؟ ذلك هو محور الصراع الانساني فكل في دائرة وجوده له أبعاد خاصة وامكانيات خاصة لا يستطيع خلالها إلا من تساعده على ... الحرمان والانعزال ينظر الى نفسه فيملؤه الحزن والشقاء ويتطلع الى ما يعلوه فيشعر بالحقد والحسد وتتشكل أحاسيسه وفق انطباعات خاصة توحي اليه بمنهج تفكيره وسلوكه بالصفة الخاصة

ومن هنا نستطيع أن نحدد قاعدة عامة وواضحة على هذا فالشخص الفقير المحروم الذي لا يجد ما يسد به رمقه ويحميه من تقلبات الطبيعة وشرود الزمن والذي يقطن الأحياء الفقيرة وتحد من انطلاقه وتفكيره جدران العزلة والحرمان، ليس أمامه أي أمل من هذا الوضع الى أي نوع من أنواع التقدم الروحي

ومثل هؤلاء المعذبين قد صرعهم البؤس وشردهم الشقاء لا يعرفون على

من يقع اللوم ومن المتسبب فى وجودهم هذا . فهل هو القدر أم هو الانسان ؟

الحقيقة أن الصراع الروحى بين الانسانية عامة هو الذى يوجد مثل تلك الحالات فكل انسان يضع لنفسه القيم والمفاهيم الخاصة متى تلائم ظروفه وتعبر عن متطلباته وتمكنه من الوصول اليها بما يتوفر لديه من امكانيات وقدرات ، وبالتالى فكل يحاول أن يعبر عن نفسه ويحقق متطلباته ويؤمن نفسه ضد الحرمان والشقاء ويوفر له مستقبلا مشرقا يحقق فيه غاية سعيدة له ولاسرته من بعده .

ومن هنا ينشأ الصراع وتتصادم الرغبات وتتشتت القيم والمفاهيم .

وقد جاءت الأديان السماوية لتكون للبشرية هادية وضياء لها يسترشد بها الانسان فى وضع تلك القيم والمفاهيم .

كما وأن الأديان السماوية لا تكتفى بالتعرض لمضمون الوجود الانسانى بل انطلقت فى وضع مقاييس للمطالب الانسانية من حيث حتمية توافر الرخاء المادى وشمول الخير الروحى وتستهدف تحقيق السعادة للجميع ، وتؤمن بأن النظم والعلاقات ينبغى أن تحدد على أساس مبدأ التزام الحق وتجنب الارهاب والاستغلال كما وانها تؤمن ايمانا عميقا وتصر فى الدعوة بان التآلف والتآخى بين الفئات الشعبية له القدرة على البقاء وتقارب الناس الى بعضهم وتمكنهم من خلق مجتمع تسوده الحرية والمساواة والعدل .

كما واننا لا نستطيع أن نذكر تلك الآثار الخالدة التى عادت على الانسانية من انبثاق الفلسفات القديمة المتعددة ومدى تأثيرها على العقول وتهيئة الاحساسات

واثارة العواطف لتلقى الرسالات السماوية والتفاعل معها والتأثر بتعاليمها الخالدة المتكاملة ، وبالرغم من تلك المفاهيم والمطالب الأساسية التى توصل اليها الأنسان من خلال الفكر والمنطق الفلسفى وأكدتها كافة الأديان والتعاليم السماوية نرى أن الإنسان له من الدوافع والبواعث التى تجعله يثور ويضطرب ولا يستطيع أن يحقق مطالبه وحاجاته التى يشعر بحساسيتها من حيث مساهمتها فى شعوره بانسانيته ووجوده وطالما أن المجتمع يتكون من فئات متباينة ذات مصالح متضاربة وحاجات متنافرة تجعل كل فرد مستقلا بارادته وسلوكه فى بيئته الاجتماعية فان هذا يستتبع اضطراب نفسى وعدم استقرار لأنه سوف لاتكون هناك حدود أو أبعاد للمطالب الأنسانية بل ستصبح نسبية غير مستقرة ويصبح مبدأ تحقيق المطالب غير مناسب لحاجة الفرد ومن هنا تصبح غاية الحياة الأنسانية نسبية لا حدود لها وكلما ارتقى سلم المدينة استحال ارضاء وتحقيق مطالب أى كائن اجتماعى دون أن يكون هناك تقدير واعتبار لمطالب الذين يحيطون به.

ما وراء الصرع الانسانى

الانسان منذ وجوده وهو فى صراع دائم تارة مع الطبيعة وتارات أخرى مع نفسه ومن يجاوره فلماذا يثور الانسان وما هى البواعث التى تشير من انفعالاته وتجعله يثور وينطلق هائجا لا يدري له غاية أو حدود يتصادم بأى شيء يعترض انطلاقه أو يقف عثرة فى طريقه .

فمنذ بدء الخليقة والانسان هائم يعيش فى فراغ كبير وسؤال يضطرب فى أعماقه ماهى غاية وجوده والى أين يسير ؟؟ هذا السؤال جعله يتخبط فى سلوكه ويتراجع فى مطالبه ويعلو بتفكيره الى آفاق لا نهائية فكلما اعتقد انه قد وصل الى حدودها ظهرت له آفاق بعيدة تجذبه اليها وتجعله ينطلق نحوها حتى ولو كان يسلك سلوكا يتعارض بالحدود التى توضع له من خلال بيئته الاجتماعية .

هكذا يسير الأنسان تارة ضد الطبيعة وتارة ضد نفسه ، ومما لا شك انه كلما تطور الفكر الانسانى وازدادت معارفه وادراكه لنفسه كلما ازدادت ثورته واتسع بالتالى الفراغ الذى يحيط به .

ثم نعود لسؤالنا . لماذا يثور الانسان ؟ فهل يثور لمجرد اشباع دوافع ذاتية تجبره على الثورة والتمرد أم أنه استعداد فطرى فى الانسان للفوضى أم أنه يثور لمجرد الحصول على حاجة معينة ثم يعود للاستقرار والهدوء أم أن تلك الثورة مجرد تعبير عن طاقة فائضة فى نفسه لا يستطيع إخراجها الا بتلك الوسيلة . وأخيرا هل يثور الأنسان وهو لا يعين ولا يدرك أنه يثور ؟ .

تلك التساءلات تدفعنا لكى نلقى نظرة على حقيقة نفس الأنسان وأبعاد فكره وعواطفه حتى نتمكن من الوقوف على أصول ثورته وانفعالاته وبواعثها الحقيقية .

ولا ريب أن مشكلة الأنسان هى الوسيلة التى تمكنه من ادراك نفسه طالما أنه لا يستطيع أن يدرك جوهره وحقيقته .

وبالتمعن فى حقيقة الأنسان نجد أنه يتكون من الناحية البيلوجية من خلايا وأنسجة وأعصاب وهذا التكوين العضوى يحتاج لإستمراره فى الحياة والنمو الى متطلبات أساسية إذا ما حرم منها أدى ذلك الى اضمحلاله وفنائه . فالجسم من حيث تكوينه من مادة وروح يحتاج الى متطلبات خاصة من غذاء وهواء ومأوى ومن حيث الجانب الروحى أو النفسى فله أيضا متطلبات خاصة ودوافع داخلية وغرائز واحساسات تملى على هذا الكائن الحى اشباعها من حيث الشعور بالأطمئنان وحب البقاء والسيطرة والتملك والأنانية ... الخ .

ومن ثم فالأنسان يسعى جاهدا شعوريا أولا إراديا نحو تحقيق هذا الوجود المادى والروحى على السواء .

ومن أجل تحقيق هذا الوجود يسلك الإنسان سلوكا يؤمن فى أعماقه بأنه سيؤدى به الى تحقيق تلك المطالب والأحاسيس ويبدأ فى وضع قيم ومفاهيم خاصة تعبر فى مضمونها عن نفسه ومصالحه .

ابتدأت بفكرة ودوافع داخلية وبواعث خارجية جالت فى أعماقه ثم تشكلت وأخذت طابعها وأركانها وصفاتها .

ومن ثم فان تلك المفاهيم والقيم والشعارات التى يشكلها لنفسه ستعتمد

بصفة ابتدائية على مدى قدرته على الادراك والتفهم والتقدير .

وطالما أن الصفات الانسانيــة وخصائص السلوك البشــرية تتنوع خلال المجتمع الواحد من فرد الى فرد ومن مستوى الى آخرى فان الآراء تتضــارب والمصالح تتصادم وتتشتت سلوك كل فرد أمام الآخر ويحدث الصــراع الذى لا مفر من وجوده إزاء تلك الأوضاع المضطربة .

ومن هنا ولــكى نتمكن من ملاشاة هذا الصــراع والقضاء على هــذا الاضطراب يجب أن توحد الغايات وتوفق ما بين الفئــات وذلك عن طريق قيم ومفاهيم تحد من الطغيان وأن تكون ضابطة وحابكة للسلوك الفردى خلال البيئة الاجتماعية .

وهنا نتساءل كيف تتمــكن تلك القيم والمفــاهيم من أن تخلق الاستقرار والهدوء فى المجتمع الأنسانى ؟؟.

فما لا شك فيه أن الأنسان دائما وأبدا يسير وراء الحــلول التى تتضمن فى محتواها استجابات موفقة منطقية كاملة تعبر عن حقيقة الواقع الانسانى ومتطلباته كما وأن القيم والمفاهيم والنظم السياسية لم تأت الى الواقع المادى بمحض الصدفة أو بطريقة لا إرادية ، وإنما جاءت استجابة لحقيقة الذات الانسانية وتلهفهــا الى حياة الاستقرار والسعادة كما وانها جاءت كرد فعل لاندفاع الفئات الأنسانية لحياة الفوضى والهمجية واللاإنسانية .

وهكذا فالأنسان بطبيعته ميــال للاستقرار والهــدوء . وعليه لــكى تجعل ذلك الانسان ينقاد الى تلك الشعارات والقيم والمبــادىء التى ترفع لتنظيم حياته وتوفق ما بين علاقاته العامة يجب أن تــكون تلك النظريات والقيم ذات نظرة أيجابية للواقع الانسانى من حيث ارتباطها بالواقع المادى والروحى على السواء وأن تتمثل فيها الفضائل والقيم الأخلاقية المتوارثة على مر الأجيــال كما يجب

أن لا تحمل فى محتواها متناقضات لأوضاع معينة وإنما يجب أن تكون قائمة على التوفيق ما بين النظريات الروحية والأخلاقية التى تعبر فى مكنونها عن حقيقة النفس البشرية فاذا ما كانت تلك المفاهيم تعبر عن الواقع المادى فحسب فانها دون شك تعلو بالمادة على الأنسان و تمجدها عن الكيان الأنسانى عامة . وهذا ما يتنافى والقواعد الالهية والطبيعية التى فطر عليها الانسان منذ وجوده .

أما اذا كانت المفاهيم تعبر عن الروح فحسب فانها لا تكون إلا شعارات خيالية تنأى بالانسان عن واقعه المادى المحسوس وتعلو به الى آفاق الخيال والأحلام ولا تستجيب فى مضمونها لواقع التجربة والوجود .

وعليه فيجب أن تكون المفاهيم والفلسفات والقيم التى تنظم العلاقات الانسانية لتستجيب فى واقعها الى الكيان المادى والروحى للانسان وأن تكون قادرة على تحقيق جوهر الوجود الانسانى وخلق الإستقرار والهدوء والسلام فى المجتمع كما وانها يجب أن تمجد الأنسان فى الأرض وتنظر اليه نظرة اجلال وتقدير وأن تكون قائمة على أسس من التقارب والمشاركة المادية والوجدانية للفئات الشعبية على السواء حتى يتمكن كل فرد من أن يشعر بأن تلك القيم والمفاهيم هى فى نفس الوقت ما تصبو اليها نفسه الانسانية وفى نفس الوقت تعبر عن حقيقة احساساته ومشاعره وعواطفه وتستجيب الى كافة متطلباته واحتياجاته التى التى تمكنه من الشعور بآدميته وانسانيته فى الارض .

وبهذا نتمكن من القضاء على الصراع الانسانى ويصبح بديلا عنه التوافق والتضامن والتلاقى بين الفئات الانسانية عامة .

وعن طريق الاسترسال فى تتبع مراحل تطور الملكيات منذ بدء الخليقة حتى ابتداء ظهور الفلسفات والأفكار التى جملته لمظاهر الملكية أو ضياع خاصة ومسميات متباينة يمكننا أن نستدل على أعمق الدوافع والمؤثرات التى تتسبب فى خلق الصراع ما بين بنى الانسان والأرض .

تطور الملكيات الفردية

منذ أن وجدت المجتمعات البشرية ونظام الملكية الشائع يسود وجودها وكانت وسائل الانتاج المختلفة ملكا للجميع على السواء تقسم منتجاتها فيما بينهم بأقساط متساوية حتى تأصلت عادة تقسيم كل شيء إلى أجزاء متساوية لدى الشعوب البدائية وأصبحت منهجا أصيلا متعمقا في نفوسهم وتمييزا خاصا لسلوكهم نظرا لما كانت عليه منتجات العمل اليومي لاتكاد تكفي لاشباع حاجات الأفراد وكانت عمليات اقتناص الحيوانات والزراعة تتم بأسلوب جماعي ونتاج هذه العمليات يقسم على كل من شارك فيه .

وكانت تلك الجماعات تجوب الأقفار وتركب الصعاب سعيا وراء الرزق تارة بالصيد أو بمجرد الاقتناع بما تقدمه اليهم الطبيعة من ثمار ونباتات. . . الخ ومالبث أن ازداد تعداد تلك العشائر وتضخم إلى الحد الذي لايسمح بالاستمرار والتجول والاستناد إلى ثمار حياة الترحال والإنتقال من مكان لآخر ودفعتهم مزايا العمل الجماعي إلى الاستقرار في منطقة تتوافر فيها الحاجات الأساسية لأستمرار وجودهم كرقعة من الأرض تصلح للزراعة البدائية وتضاريسها تصلح لكي ترعى فيها حيواناتهم التي تعتبر لحومها غذاء لهم وفراءها لباسا يقيهم التقلبات الطبيعية . وبهذا نشأت أولى مظاهر الاستقرار التي ترتبت عليها حالة التقسيم التلقائي للأرض تقوم عليها أنواع الزراعات البدائية التي يحتاجون لها

وتستغل فى تربية ماشيتهم وبهذا ظهر شبه انتظـام لاقتصاد بدائى وأخذ عـدد السكان فى الازدياد .

وكانت تلك الأرض تعتبر ملكا عاما لأفراد القبيلة على السواء لايختص بهـا فرد أو افـــراد وإنما ماعليها من ثمار وحيوانات هو من أجل بقاء الجميـــع على السواء .

وكان العمل فى هذه المجتمعات يقوم على مبدأ التعاون البسيط المستجيب لمتطلبات تلك الجماعات وسارت تلك الحياة البدائية على هذا المنوال حتى تطورت مظاهرها وتعقدت مطالبها وتطورت أدوات الانتاج وكل هذا أدى بدوره إلى تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات فى مجال الالتقـاء الجماعى الواحد . فهنـاك فئة تختص بأعمال القنص والصيد وأخرى تخصصت فى الأعمال الزراعية حتى اكتسبت بعض المهارات فى هذا المجال بناء على المتـابعة والمشاهدات المتكـررة وفئات أخرى قصرت نشاطها على تربية المواشى والحيوانات وهذا كله كان له عظيم الأثر فى رفع مستوى الانتاج العام .

وبجانب تلك الحرف البدائية الأساسية من زراعـة وصيد وتربية المواشى أدى اكتشاف المعـادن إلى ظهور حرف أخرى اجتذبت عددا من الأفـراد تخصصوا فى هذا المجال واعتمدوا فى معيشتهم على نتاج الفئات الأخـــرى فى مقابل تبادل المواد الانتاجية .

وظلت تلك الحياة تسير على هذا المنوال حتى ظهرت حاجة تلك الجموع إلى من ينظم تلك الحيـاة ويوفق بين صراع الرغبات التى تؤدى غالبـــا إلى نشوء المنازعات والاضطرابات وهكذا انبثق للوجود ظاهرة السلطة المتمثلة فى هيئـة

فردية أو جماعية من أجل خلق الاستقرار والنظام فى تلك الحياة .

ولو تتبعنا مراحل تلك السلطة المنظمة لوجدنا أنها قد ابتدأت منذ ان كانت الحياة بالنسبة للأفراد مجرد الانتقال من مكان لآخر سعيا وراء الرزق فلا شك انه فى تلك المرحلة كانت السلطة فى يد من تتوفر فيه بعض الصفات التى تؤهله لقيادة تلك الجموع كالقوة والإستعداد البدنى وسرعة الحركة وحساسية السمع وحسن تقدير الموقف مما يمكنه من التصدى للحيوانات الضخمة المفترسة التى كانت تشاركه فى الترحال بحثا عن الطعام ايضا وبهذا تمكن الفرد من جذب الفئات ورائه وجعلها تشعر بحاجة ماسة لوجوده لقيادتها وتحقيق رغباتها ثم ما أن تداركت تلك الجموع حياة الاستقرار فى مكان ما تتوافر فيه المصادر الغذائية وتتلاءم ظروفه المعيشية معهم حتى تبدلت المعايير اللازمة لإعتلاء رئيس للجماعة يتسلم زمام الأمور نحو قيادتها وأصبح أكبرهم سنا والذى تكون لديه من التجارب والخبرات فى شئون الحياة ما يوفر عليهم مشقة التجربة بصعابها ويقدم لهم خلاصة فكره ومشورته . فكان هذا الرئيس يعيش مع القبيلة ينظم أمور أفرادها ويفضى منازعاتهم أثناء خروج أبنائها وتفرقهم كل فى مجال عمله واختصاصه وهذا الرئيس ما عليه إلا تنظيم عمليات توزيع نتاج جهودهم فيما بينهم .

واستمرت تلك الحال من حيث اختصاصات السلطة المنظمة ، وأخذت مظاهر تلك الحياة تتطور ، والعقل البشرى فى نمو مضطرد وتسامت الأفكار وابتدأ البحث فيما وراء الطبيعة وابتدأت الأفكار المتباينة تسيطر على العقول العامة كعودة الروح بعد موت الجسد والحياة الثانية وما استتبعنا من أعمال السحر والشعوذة وتنميق الكلمات الغامضة التى كانت تسيطر على عقول العامة السذج وتستأثر بقلوبهم ووجداناتهم وتسخرهم وفق ارادة هؤلاء الزعماء الروحانيين .

ومن هنا تباينت المعايير التى على أساسها يتم انتخاب رئيس الجماعة تبعا للمستوى الفكرى والحضارى للأفراد ولكن الأمر الثابت أن هذا الرئيس كانت عليه مسئولية ادارة أعمال الجماعة وله الكلمة الأولى والأخيرة فى حق الاتجار بالخارج وتبادل فائض الحاصلات والمنتجات وقطعان الماشية فى مقابل الأشياء التى لا يتوافر وجودها فى نطاق معيشتهم وامكانياتهم .

ونتيجة لتطور مظاهر الحياة وأدوات الانتاج وتقدم الفكر البشرى أدى هذا الى اتساع المبادلات التى كانت تخضع لهؤلاء الرؤساء فازدادت تبعا لهذا مكانتهم وسيطرتهم واعتبروا أن لهم حق قيادة الجماعة وبذلك أخذت ثرواتهم ومصادرها تتركز فى أيديهم وتخضع لسلطانهم وتعتبر أرثا يتداول فى نطاق أسرة الرئيس جيلا بعد جيل .

ولقد أدى استقرار الجماعات الأولى فى منطقة معينة وتركيز نشاطها فى حدودها إلى انبثاق وظهور فئة أخرى تنازع رؤساء الجماعات فى سلطانها ألا وهى فئة القادة العسكريين فلا شك أنه من الأمور التى تتبع ازدياد السكان وتضخمهم وقلة الموارد الطبيعية التى تكفى حاجتهم وتطلع هؤلاء الأفراد للمناطق التى تحيط بهم وتتوافر فيها الموارد الطبيعية والامكانيات المادية بكونهم فى حاجة اليها لاستكمال مظاهر وجودهم مما أدى الى ابتداء مراحل الحروب والغزوات وهذا مما دعم مراكز قادة الجيش العسكريين الذين يحرزون نصرا بعد آخر مما جعلهم فى مكانة تنافس رؤساء الجماعات فى الاستئثار بمقدرات الأفراد وكذلك فى مدى ولاء الشعوب لهم والخضوع لأوامرهم .

وهكذا بدأ ظهور الاستعباد والاستغلال حتى شمل كافة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فكلما زادت معدلات نتاج المواد الانتاجية

وزيادة الرقعة الزراعية كلما زاد معدل الاحتياجات فى الايدى العاملة ومن تبدل مفهوم الحروب فأصبحت تستهدف من بين مفاهمها الاستيلاء على الأيدى العاملة وأسرى الحرب الذين يسخرون فى أعمال الزراعة واتسعت الفجوة بين طبقة الملاك والطبقة العاملة والعبيد وتنكر الرؤساء واتباعهم للفئات العاملة الى كانت فى يوم ما يتساوى معهم فى امتلاك تلك الأراضى ومصادر الثروات وتدريجيا بدأت علاقات الانتاج تتبدل من علاقات متساوية لها حقوقها وواجباتها وفقا لحاجة المجموعة الى مجرد علاقات بين سيد وخادم ، مالك ومأجور . وأصبح كل مستغل خلال هذا التحليل الاجتماعى والتحول من الملكية المشاعة إلى الملكيات الخاصة يفسر المفاهيم والعبارات لخلق قدسية لهذه الملكيات ابتدعها من أجل التأثير على خيال تلك الشعوب وجعلها فى سكون واستسلام ورضوخ وفقا لارادته ولنا أن نستعيد معا بعض القوانين واللوائح التى كان على منوالها تنظم العلاقات بين الاسياد والعبيد .

فقد نص القانون الرومانى المعروف بقانون الألواح الاثنى عشر (*) على أن من يقطع أو يحصد خفية بالليل حاصلات يستعمل المحراث فى زراعتها يعاقب إن كان بالغا بالاعدام أما إذا لم يكن بالغا فيحكم عليه بأن يضرب بعصا عددا من الضربات يقضى بها القاضى . كما يحكم عليه بضعف ما يصلح الضرر وإن كان السارق عبدا فيجلده المجنى عليه ثم يعدمه بقذفه من أعلى الجبل.

وفى قانون « بورجوند » كان يحكم على الزوجة والابناء ممن يزيد عمرهم عن اربعة عشر عاما بالعبودية إن لم يبلغوا فورا عن الزوج أو الأب المتهم بسرقة « خيل أو بقر » .

(*) تطوير الملكية الفردية بقلم الاستاذ احمد محمد غنيم.

أما قانون حمورابى الذى يرجع الى القرن الثامن عشر قبـــل تاريخنا فانه يحمى الملكية وحقوق الأغنياء والنبلاء وملاك العبيد والأراضى . فكان يجب على الفلاح الذى لم يدفع دينه الى دائنه أو الذى لم يدفع ايجار أرضه الى المالك العقارى أن يقدم زوجته أو ابنه أو ابنته للدائن أو المالك كعبيد تابعين له حتى يقوم بسداد ما عليه من دين .

وقانون « مانو فى الهند القديمة » وهو مجموعة من الأوامر الاجـتماعية والدينية التى تقـدس الملكيـة فـكان يعاقب بالاعـدام كل من يخفى فى منزله عبدا هاربا .

من خلال تلك القوانين يمـــكننا الوقوف على أبعاد الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين طبقة المـلاك والفلاحين والعبيـد وآثار الذل والسخرية التى كانت تلحق بهؤلاء الضعفاء المسخرين فكانت الأسس الإنتاجيـــة تقوم على علاقة شاذة لا تمت بصفة إلى الانسانية أو القيم الأخلاقية العليا وانما كانت هناك ملكية السيدلوسائل الانتاج والنفوس البشرية التى تعمل بها ولا تقتصر تلك العلاقة على مجرد استغلال الانسان لأخيه الانسان وإنما تعطيه الحق فى شرائه أو بيعـه كسلعة مادية تخول له حق التصرف به حقا مطلقا مستبدا .

ولا شك أن كل نظام يقوم على المتناقضات والأوضاع الشاذة يحمـل فى أعماقه أيضا بوادر فنائه والشرارة التى تؤدى الى اشتعـــال أركانه واندثار مظاهره وانقراض وجوده .

وهذا هو الحال فى النظام العبودى . أوضـاع شاذة لا تمت الى الأنسانيـة بصلة أو قرابة تستنكر فى وجودها متطلبات البشرية وحقوقها الطبيعية فابتـدأ

النظام الإقتصادى الزراعى والتجارى الذى كان يستند على تدفق أفواج العبيد تعترض طريقه عشرات تتمثل فى الأنتفاضات الثـــورية ومطالبة هؤلاء البشر بحقوقهم فى الحياة والقضاء على ملاك العبيد مما دعا بعض الملاك فى اطلاق سراح هؤلاء العبيد وأعطوهم بعض الحقوق فى امتلاك قطع صغـــيرة من الأرض يستثمرون نتاجها بمجهودهم ووفقا لإرادتهم ولكن لم يترك السادة العنـاق لهم ولم يمنحوهم الحرية المطلقه وإنما كبلوهم بقيـــود أخرى والتزامات باهظة بموجبها يقدم هؤلاء الفلاحين مبلغا من المال أو جزء من المحصول وانتمائهم بالولاء والطاعة لصاحب الأرض والمالك الأصلى .

نظام الاقطاع

كان على أثر قيام السيد صاحب السلطة بتوزيع بعض الاراضى الشاسعة على بعض أتباعه ، يمتلكون بموجب تلك الهبة الارض بما عليها فى مقابل التزامهم بالولاء نحو هذا السيد ويدينون له بالتبعية والولاء العسكرى وامداده بالعون المالى والتأييد متى احتاج اليه ، أن تدفق اليه بالتالى من تلك الاقطاعيات ضرائب بصفة مستمرة ترسل له على فترات دورية وبصفة استثنائية اذا ما احتاج لعون مالى .

وبالتمعن فى تلك الالتزامات التى تقدم من مالك الاقطاعية الى السيد نجد أنها فى المضمون تقع أولا وأخيرا على هؤلاء الفلاحين وتمتص من جهودهم وطاقاتهم ودمائهم وفى مقابل حرمانهم من مصادر الحياة .

وكان أصحاب الاقطاعيات يوفرون تلك الالتزامات عن طريق استيلائهم على بعض المحصولات وفرض الضرائب ثم يقومون بدور الوسطاء فى هذا وذلك بنقل تلك الاموال والمحصولات الى السيد بعد أن يستقطعوا جزءا منها يصبح حقا لهم .

كيفية نشأة البرجوازية

عندما نتعرض لبحث نشأة البرجوازية كمرحلة انتقالية من الاقطاع الى الرأسمالية فى أوربا إنما ندرس الأسس التى ارتكزت عليها فى مراحل انطلاقها وأثرها فى النظم الاقتصادية والاجتماعيه والسياسية ومدى تأثيرها على الفكر خلال تلك المرحلة .

كانت اوربا خلال العصور الوسطى منقسمة فى كيانها الطبقى الى ثلاث طبقات . طبقة النبلاء والاقطاعيين وطبقة رجال الدين والطبقة العاملة .

وكانت حينئذ الحياة السياسية هى ميدان خاص لا يخوضه إلا النبلاء ورجال الدين نظرا لارتباطهم بالملكية التى تؤيدهم وتمدهم بعوامل القوة والسيطرة بينما الطبقة الثالثة وهى الطبقة العاملة التى لا تملك من الثروات والقدرات إلا طاقتها على العمل والكدح فى سبيل الحياة وهؤلاء بعضهم يقطن القرى ويرتبط مصيره بملاك الأراضى الإقطاعيين التابعين لهم تبعية تفقدهم كيانهم الأنسانى وآداميتهم البشرية — أما الباقى منهم الذين مكنتهم ظروف خاصة من التحرر من تلك القيود الرهيبة وانطلاقهم الى خارج تلك المقاطعات المنعزلة واقامتهم فى مدن صغيرة تقع عند ملتقى مقاطعات متخذة الحرف والصناعات الخفيفة معاشا لهم يقتاتون منه أو يقومون بنقل التجارة من مكان لآخر وكانت

مهنة التجارة فى العصور الوسطى تعتبر من المهن المنافية للشـــرف والنبالة وقيم الكنيسة الكاثوليكية وكانت تلك المفاهيم والمعتقدات تسود تفكير المجتمـــع الاوربى فى ذلك الحين وهى موروثة من الرومان الذين كانوا يعتقـدون بأن التجارة مهنة خسيسة لا يزاولها القوم الشرفاء بصفة مباشرة وانما تدار عن طريق الأرقاء والأتباع تؤول مكاسبها وأرباحها لهم من بعد .

وظلت تلك الأفكار الرومانية راسبة فى الأذهان طول تلك الفترات وتسيطر على العقول والسلوك خلال المجتمعات الاوربية ولقد كانت اوربـا منطوية على نفسهـا فى ظل تلك الأوضاع الشاذة وهـذا المجتمـع المتنافر، كل اقطاعية منها ترتبط فئاتها العـاملة بالسيد صاحب الأرض يتحـكم فى مصيرهـا ويقود حياة أفرادها مقابل أن يقـدم لهم الطعام والـكساء ويستبـد بالإدارة والحكم فيما بينهم .

وكانت كل اقطاعية يسود فيها نظام اقتصادى مغلق وذلك بتوافر كافة احتياجاتها الأساسية وذلك عن طريق بعض الحرفيين داخل المقاطعة يقومون بممارسة الحرف التى تقوم على مواد أوليـة وخامات متوفرة فى نطـاق المقاطعـة كالملابس والأحذية وأدوات الصيد .

وبمرور الوقت أخذت تلك الحرف البدائية تتطور وتتقدم وزاد احتياج وطلبات السادة الإقطاعيين لها مما أدى الى انتقال بعض الحرفيين من مجرد اتخاذها عمل بجانب عملهم الأساسى فى الزراعة وتخصصوا للقيام بها وكانت تلك الحرف هى المخرج الوحيد من جدران عزلة الإقطاعيين وتعسف سادتهم النبلاء .

وابتدأت الحرف تمارس فى صورة فردية ثم أخـذت تتطور حتى تلاقت الفئات الحرفية فى مجموعات متخصصة كل فى مجاله ، ثم استتبـــع ذلك ظهور الأسواق التى يتم فيها عرض المنتجات الصناعية وبالتالى زاد الاقبـال عليها مما أدى الى تقدمها وتكامل صناعتها وانبثقت مجالات متسعة لعرض منتجات الصناع والحرفيين حتى تحولت كثير من القرى الصغيرة الى مدن يسكنها فئات متباينـة من الحرفيين ونشأت الأسواق الدائمة التى يتم فيها التبادلات والمقايضات .

وأخذت تلك الفئات ترتقى سلم الطبقات المادية واتخذت مكانا مرموقا من الاقتصاد وأثروا ثراء كبيرا حتى بدأت طبقة الأشراف والنبـلاء ورجال الدين فى مهاجمتهم وضربهم بسموم الحقد والكراهية محاولين تحقـير شأنهـم واذلالهم من الناحية المعنوية واعتبروا أن تلك الطبقه لا تستحق مظاهر الآدميـة وكانوا يطلقون عليهم *Porjowa* البؤساء أو المتطفلين باعتبار أن عمـــل التجارة عمل خسيس ودنيء .

وبالرغم من تلك الأقاويل والادعاءات انطلقت الطبقة البرجوازية من خلال تعسف النظم الاقطاعية وعلى أثر اذلال السادة للفئات الشعبية والتحكم فى مقدراتهم وكيانهم العام والخاص وانفجرت تلك الفئـة تحمل فى عقولهم أفـكارا جديدة متطورة وتكمن فى قلوبهم تطلعات الى آفاق ظلوا سنين طويلة تراودهم أحلام وأمانى يستهدفون تحقيقها وتحويلها من مجرد أفكار وخيالات الى حقيقة محسوسة ذات واقع حيوى بالنسبة لهم ترتقى بوجودهم من الحرمان والكبت والآلام الى آفاق التحرر والشعور بالذاتية الانسانية .

وكان مجرى الأحداث التاريخية العالمية يعتبر مجالا خصبـــا لهم وتساهم فى ارساء أقدامهم وتدعيم كيانهم فكانت الحروب الصليبية (١٠٩٦ — ١٠٩٩)

قد فتحت لهم أبوابا شاسعة لتبادل التجارة من الغرب والشرق ونقل التوابل والعاج والأحجار الثمينـة من الشرق الى الغرب ثم تنقـل من الغرب الى الشرق المنسوجات والصناعات المتعددة ، مما أدى الى تطور مظاهر الحياة ودب النشاط فى المدن وأصبحت ملتقى لفئات متباينة وأخذت المظاهر الاقتصادية فى التطور وتسير وفقا لأهواء تلك الفئات التجارية حتى أصبحت ذات مكانة وكلمة فى المجتمعات الاوربية .

ومما ساهم فى ارساء وتدعيم جذور هذا النجاح والتطور واعلاء شأن تلك الفئة هذه الثورات المتعاقبة التى كانت تنطلق شرارتها من الفلاحين ضد ظلم الطغيان الاقطاعى وضد تلك الإدعاءات التى كان يرفعها الإقطاعيون عليهم لحرمانهم من حق استغلال مصادر الثروات الطبيعية ومنها ثورة جماعات الجاكيرى *Jacqueries* فى مقاطعات شـــمال ووسط فرنسا التى كافحت ضد ادعاءات الإقطاعيين الذين منعوا الفلاحين من استغلال الغابات ومجارى المياه (*)

وكذلك ثورة الفلاحين فى انجلترا فى نهاية القرن الرابع عشر التى امتدت الى اجزاء كبيرة منها وانتشر الفلاحون المسلحون وعلى رأسهم « وات تايلر » وهددوا منازل الإقطاعيين ولكن تم القضاء على هذه الثورة بأساليب الخداع والعنف وقتل « تايلر » غدرا بعد أن القى الإقطاعيون فى روع الفلاحين أنهم سيعملون على تحقيق أهدافهم حتى تخدرت تلك الجماهـــير وعادوا الى منازلهم وقامت هناك حملات تأديبية عصفت بالقرى فى قسوة ووحشية .

(*) تطوير المـــلكية بقلم احمد محمد غنيم

كما كان هناك ثورات أخرى فى المانيا منها ثورة الفلاحين فى « سواب Souabe » فى عصر لوثر وكذلك حروب الفلاحين فى روسيا بقيادة « ستيبان زورين » فى القرن السابع عشر و « أميليان يوجا تشيف » فى القرن الثامن عشر والتى طالب فيها الثوار باعادة تسليم أراضى الإقطاعيين والدولة الى الفلاحين وانهاء السيطرة الاقطاعية .

ومما لا شك فيه أن تلك الانتفاضات الثورية المعبرة عن أمانى ورغبات الفلاحين والفئات الكادحة ومحاولتهم المستمرة للحصول على حق الحياة قد عادت على البرجوازية فيما بعد بآثار ساعدت على نشوئها وارتقائها واحلال الاستغلال الرأسمالى محل الاستغلال الاقطاعى .

ولا يتسع مجال بحثنا هذا للاسترسال فى مناهج البرجوازية المتعددة المتعاقبة التى أدت فى النهاية الى سيطرتهم على مظاهر الحياة وانما سنكتفى بالمرور على نتائج صراعهم . فكان انطلاق البرجوازية إلى ميدان الانتاج مستندا على عامل رفع معدلات الأرباح بجانب الحفاظ على مصالحهم وسلكوا فى هذا منهجا لا يقل استغلالا عن المنهج الاقطاعى فى استغلال الفئات البشرية .

وبعد أن نمت وتراكمت رؤوس أموالهم وتضخمت خزنهم تنكروا لتاريخ صراعهم وتناسوا مطالب الفرد الانسانية واتبعوا أساليب المكر والدهاء نحو ادارة مشاريعهم واستثمار أموالهم ضاربين بكل المبادىء الانسانية والحقوق الفردية التى كانوا فى يوم من الأيام عبدا لسرابها حالمين بوجودها .

ثم جاء الاصطدام الحتمى بين الفئات الشعبية وبينها عندما ظهرت الفجوات العميقة بينهما وتبلورت معالم السيطرة والاستغلال للمرافق الأساسية والوظائف

الحساسة من وراء قوة المال وشراء القانون .

واندفعت الجماهير تشد من أزرها طبقة النبلاء ورجال الدين الذين اتجهوا الى قوة الجماهير بعد أن زالت مكانتهم وسيطرتهم امام النفوذ الرأسمالى السريع التطور واتفق هذا المحور المكون من الشعب والنبلاء ورجال الدين ضد الملكية التى وجدت من البرجوازية خير معين لها أكثر فاعلية من النبلاء ورجال الدين من حيث تدعيم ملكهم واستمراره ، وحاجتهم الى الأموال لتكوين اجهزتهم الادارية والدعاية وهذا العنصر المادي اصبح متوفرا عند القوة الاقتصادية الجديدة التى تتركز مصادرها فى أيدى البرجوازية التجارية والصناعية الجديدة .

ومن زاوية أخرى نجد أن البرجوازية قد باركت هذا التحالف وانطلقت نحو الملكية تساندها وتجيب لها ما تطلب نظرا لما تداركته انها فى حاجة الى مزيد من الأمن والاستقرار المبدىء وعلى هذا الأساس انطلقت لامداد الملوك بما يحتاجون اليه من مال وسلاح لمحاربة طبقات النبلاء والأشراف ورجال الدين الذين يمثلون بقايا عصر الاقطاع وصوره لتاريخ لا يشرفهم ووسيلة لاطفاء نيران تتأرجح فى صدورهم ورواسب تترك فى نفوسهم عقدا مترسبة .

كما أن هذا الاتفاق والتحالف كان فى حد ذاته قوة تحد من مطالب الفئات الشعبية التى أصبحت عقبة أمام المزيد من الاستثمارات المالية على أثر النهضات الفكرية وظهور الفلسفات الجديدة المتطورة .

فلسفة الفكر السياسى البرجوازى

من الواضح أنه فى خلال كل نظام معين تــكون هناك بعض المعتقدات والأفكار التى تسيطر على عقول الفئات الخاضعة له تتحكم فى نزعاتهم وتعطى لسلوكهم طابعا خاصا وتنظم لهم مناهج خاصة تقوم عليهـــا علاقاتهم العامة والخاصة سواء فى نطاق مجتمعهم أو خارجه .

وعندما تسيطر فئــــة خاصة على تقاليد السلطة فى مجتمع ما سواء أكانت تمثل سادة العبيد أو الاقطاعيين أو البرجوازيين فانها تعمــد الى ارساء أفكار معينة وقيم خاصة تؤول فى النهاية إلى خدمة مصالحهم الشخصية وتزيد من سطوتهم وتمكنهم من الاستمرار فى تسخيرهم والسطو على مجهوداتهم وثرواتهم.

فعلى سبيل المثال نجد أن المجتمع البرجوازى يعبر عن الحرية بمضمون خاص هو فى حد ذاته تعبير عن حرية الاستغلال والتحكم فى وسائل الانتاج والتوزيع وما يتبع ذلك من سيطرة على مقاليد الحكم حتى يصبح المضمون الحقيقى للحرية بمعانيها السامية الخالدة مسلوبة زائفة وأن بدت لها بعض الملامح والظواهر المحــدودة فلا تكون إلا كمخدر للعقول والوجدانات، طالما أن ارادة الفرد لا أثر لها نظرا لوجوده خلال أوضاع شاذة متمثلة فى واقع مادي لتحكم واستغلال صاحب المال لوسائل الانتاج المادية والبشرية .

وتصبح حرية البرجوازية هى حرية الجشع واستغلال كدح العمال وعرقهم مما يجعلهم يعيشون تحت مزلة الحرمان وآلام البؤس والانعزال .

وهذا ما كان خلال مرحلة التحول من نظم الاقطاع الى الرأسمالية فى أوربا ، فقد اتجهت فيها التحليلات السياسية الى المنهج الميكيافيلى الذى يبرز الوسيلة من أجل غايتها مهما كانت تلك الغايات والوسائل منافية للقواعدالأخلاقية والقيم الانسانية السامية .

ومن ثم أصبح التفكير السياسى يحمل فى أعماقه طابع المراوغة والمكر وتنكرت السياسة فى مضمونها العميق نحو التوفيق بين المصالح المتضاربة وتنظيم العلاقات بين الأفراد فى نطاق المجتمع الواحد وسادت سياسة المصالح والتفرقة وسياسة الاستغلال والاحتكار .

ولم ينته الفكر البرجوازى عند تلك الحدود وإنما امتد إلى تبرير مذهب الحق الالهى الذى يهدف إلى أن صاحب السيادة يستمد سلطته من الله مباشرة فلا يسأل الا أمامه وان مجرد المقاومة الشعبية وتنكرها لتلك السلطة هى جريمة لا تغتفر وتمرد لتعاليم السماء والمشيئة الالهية :

وكان المفكرون والفلاسفة خلال تلك المراحل يقدمون آراء متباينة منهم ما يبرر تلك الأوضاع وآخرون يقدمون ما يثبت بطلانها ويتنكرون لها .

ولقد ظهرت كتابات متباينة دارت معظمها حول ما سمى بالعقد السياسى وما يترتب عليه من حقوق وواجبات متبادلة ما بين السلطة والجماهير ووضع منهج معين لكل من الطرفين اذا ما أخل احدهما عن قواعده حق للطرف الآخر أن يتصدى له ويتمرد عليه .

ومن هذه الفلسفات سوف نتعرض لثلاثة منها تتبلور من خلالها الحجج الفعلية التى تقوم عليها سيادة الشعب وتمكنه من المطالبة بحقوقه المشروعة وفقا لهذه العقود الافتراضية والتى تبلورت فى فلسفات كل من توماس هوبز وجون لوك ، وجان جاك روسو .

فلسفة توماس هوبز

استند هوبز فى فلسفته نحو افتراض عقد اجتماعى يبرم بين السلطة والشعب ويخرج بها الأفراد من حالة الطبيعة الى حالة الاستقرار .

وصف هوبز لحالة الطبيعة

كانت نظرة هوبز لحالة الطبيعة الاولى نظرة متشائمة فجاء تصويره لها فى حالة يستند فيهـا الفرد نحو قضاء حاجته والاحتفاظ بممتلـكاته الى عامل القوة والمصلحة الشخصية ويهتدى فى سلوكه وفقـــا لما تمليه عليه نزواته وغرائزه وشهواته ويحتفظ بحقوقه وممتلكاته بالقدر الذى يتوفر لديه من القوة ما تمكنه من الحفاظ عليها .

وقد اتجه هوبز فى تفكيره على أن ما دفع الناس للتلاقى وتكوين هيئـات اجتماعية واختيار سلطة عليا تنظم أمورهم وتحد من طغيان الأفراد فيما بينهم ، هو من اجل الحد من حالة الحرب التى تكون قائمة بين الجميع على السواء .

تفسير العقد الاجتماعى لهوبز

اشترط هوبز فى تفسير هذا العقد بتنازل الجميع عن مالهم من حقوق مطلقة وسلطات لا حدود لها فى مقابل خلق الأمن والاستقرار وتمكينهم من الحفاظ على ممتلكاتهم ومعتقداتهم وذلك بأن تعاقد هؤلاء الأفراد فيما بينهم لتحويل تلك السلطة المطلقة لفرد أو فئة معينة يختارها الأفراد بحيث لا يكون هناك أى التزام من تلك السلطة قبل الأفراد تدين به أو تسأل علية وانما وجودها من أجل التوفيق بين الارادات الفردية المتباينة . وهذا العقد هو عقد نهائى لا رجعة فيه وتنتهى مسئولية الجماهير حينما تستقر تلك السلطة .

نهاية هذا العقد

لم يترك هوبز تلك الصورة التى يتمثل فيها هذا العقد فى حالتها المطلقة وإلا ما كانت تقل فى وجودها عن حكم ليفياثان (*) وانما ترك هناك مظاهر

(*) ليفيان / شخصية اسطورية نقلها الرومان عن الاساطير العبرانية القديمة وتمثل الشخصية فى العادة فى صورة وحش بحرى كبير أو غول مرعب يعيش فى البحر متحكما فى أمره، ومستندا فى حكمه على الطغيان .

معينة اذا حرمت منها الجماهير حق عليها التمرد والخروج من العقد الاجتماعي — فخضوع الأفراد للحاكم والولاء له يتوقف على مدى سلوك السلطة نحو توفير مظاهر الأمن والحماية والحفاظ على وجودهم الانسانى . فاذا ما فشل الحاكم فى تلك المظاهر للشعب حق لهم الارتداد لحالتـــه الطبيعية واختيار سلطة اخرى لديها الامكانيات لتحقيق وجودهم ومن ثم فهوبز استهدف السلطة فى منطقة لا لشيء إلا للقضاء على حالة الفوضى حتى ولو كان هذا على حساب الحرية الفردية .

* * *

فلسفة جون لوك

تضمنت فلسفة لوك اولى مظاهر السيادة الشعبية وتعبيرا صادقا لها فجاءت تلك الفلسفة فى كتاب الحكومة المدنية سنة ١٦٩٠ فى أعقاب ثورة سنة ١٦٨٨ الانجليزية التى قام بها حزب الهويج *Whigs* ضد حكم آلا ستيوارت التى استندت فى حكمها الى مبدأ السلطة المطلقة والحق الالهى واعتبرت سلطة الحاكم مستندة من الارادة الالهية ومن يتمرد عليها فقد خرج عن الارادة السماوية .

وعليه فجاءت أفكار لوك تخدم رسالة هذا الحزب وتعطى الشرعية لأعمالهم فى خلع ملوك آل ستيوارت . وقد اتبع لوك فى منهجه نفس منطق هوبز عن فكرة العقد السياسى ولكنه وضع السلطة فى حالة مقيدة .

وصف لوك لحالة الطبيعية

اتجه لوك لوصف حالة الطبيعة وصفا يستند على أساس عقلي من حيث أن رغبات الانسان هي الدافع الأول والأخير لسلوكه ولكن في نفس الوقت تتوفر لدى هذا الانسان من القدرات ما تمكنه من الوقوف أمام تلك الرغبات والتحكم فيها ومنعها من السيطرة على سلوكه خلال البيئة الحاوية له .

وكذلك اتجه لوك بأن الجهود الانسانية تستهدف في وجودها احلال السعادة والرفاهية وتطوير الامكانيات الانسانية نحو الكمال .

والطبيعة في مفهومه هي حالة من المساواة والحرية الكاملة يخضعان لطبيعة العقل البشرى نحو اتجاهه الغريزى الى العمل الفاضل والسلوك الانسانى نحو حماية الضعيف من اعتداء خارجى والحفاظ على حقوقه خلال الهيئة الاجتماعية وهو ما يسمى بحق المعاقبة الطبيعى وفى هذه الحالة يكون الالتزام الفردى وفقا للقواعد الأخلاقية والضمير الانسانى والقانون هنا هو قانون العقل .

ومن ثم فالأفراد فى مثل تلك الحالة لهم مطلق الحرية فى أن يسلكوا أى منهج يتراءى لهم ويعود بالخير عليهم بشرط الالتزام بقانون الطبيعة الاخلاقى والأخذ بمبدأ المساواة التبادلية وعدم الاعتداء على حقوق الاخرين وكل فرد له الحق فى أن يملك من الثروات الطبيعية والامكانيات ما يوفر لحاجته الأساسية ومتطلبات معيشته ويرتكز هذا على مجهود الانسان وقدرته على الاستهلاك .

وفى خلال تلك الحالة الطبيعية يكون من حق الانسان الفرد أن يحافظ على ممتلكاته ويرد العدوان بالمثل .

مما سبق نستدل على بعض المظاهر التى وضعها لوك لوصف حالة الطبيعة والتى يصبح فيها لكل فرد الحق فى الحرية والحق فى الملكية والحق فى العمل كما وأن له واجبات والتزامات نحو جماعته فى أن يحسن استغلال ما وهبه الله ويحافظ على حياة الآخرين ويحترم آراءهم ومشاعرهم فتلك الواجبات فى مضمونها ما هى إلا التزامات أخلاقية انسانية ليس لها معايير أو مقاييس أو سلطة تجبر على انتاجها إلا العقل الانسانى . ولكن هل تسير تلك الحياة الطبيعية على هذا المنوال المثالى وهل نتنكر لآثار الغرائز البشرية الشاذة والمنحرفة ؟ من هنا اتجه لوك لتفسير غاية العقد السياسى بعد أن تدارك بأنه لكى تستقر الأمور ويستتب الأمن يجب أن تملأ الفجوات التى تتخلل هيكل الحالة الطبيعية من حيث :

١) عدم وجود القوانين التى تعبر فى مضمونها عن حقيقة الرغبات الجماعية بتباين مستوياتها .

٢) عدم وجود معايير لها .

٣) عدم وجود السلطة القادرة على متابعة السلوك الانسانى واجبار المنحرفين بالالتزام لتلك القوانين المتفق عليها .

وتبعا لهذا اتجهت الفئات للتلاقى لخلق المجتمع الذى تسوده تلك المفاهيم ، مجتمع قادر على حماية الحريات فى ظل المساواة الطبيعية ويخلق حياة يسودها الأمن المتبادل والحماية المكفولة للجميع والهدوء الشامل .

وهذا الانتقال قد تم وفقا للارادة الجماعية التى هى أصل لكل حكومة شرعية ثم انفقت تلك الفئات فيما بينها على عقد اجتماعى هم طرف من أطرافه ، والطرف الآخر هو السلطة الحاكمه المختارة وعن طريق هذا العقد تتمكن تلك الجماعة من إقامة حكومة ذات سلطة موكلة لها الحق فى وضع القوانين وفرض الجزاءات وحماية أمن الدولة واستقرارها مستمدة قوتها ووجودها من السلطة الشعبية ، وعليه فللفئات البشرية الحق فى متابعتها ومباشرة سلوكها واسقاطها متى ضلت غايتها وانحرفت فى سلوكها عن المضمون الذى احتواه العقد وتم الاتفاق عليه وحق للشعب مقاومتها حينئذ لانها تصبح فى تلك الحالة سلطة غير شرعية من حيث وجودها واستمرارها .

وهكذا كان لفلسفة لوك أعظم الأثر فى تطوير الفكر الانسانى من حيث علاقة الفرد بالسلطه وأن لا شرعية لتلك السلطة إلا بقدر تحقيق مطالب الجماهير الانسانية وقد وجه النقد لفلسفة لوك من حيث تصورها فى التعبير عن حقيقة متطلبات الفئات الجماهيرية بتباين مستوياتها من حيث جعل الغنى يزداد فى ثرائه والفقير يظل على فقره وفقا لما افترضه لوك من حيث حماية ممتلكات الفرد وعدم التعرض لها حفظا على حقوقه الطبيعية المشروعة ، ولكن لا نستطيع أن ننكر أثر فلسفة لوك فى منح آفاق متسعة لظهور فلسفات تعبر عن حقيقة الفكر البشرى ومتطلباته الأساسية .

فلسفة جان جاك روسو

تتضمن فلسفة روسو التي تبلورت في كتابه « العقد الاجتماعي » بأنه ليس هناك أعمق معنى ولا أسمى غاية تعلو التضامن الاجتماعي وقد أصاغها في الميثاق الجماعي فقال « يضع كل واحد منا نفسه وما أوتي من قوة مشتركة تحت الادارة العليا للارادة العامة ، ونلتقي بهيئتنا كل عضو كجزء من كل لا يتجزأ » .

هكذا جاء تقديس روسو للارادة العامة التي هي في مضمونها تعد تعبيرا شاملا عن متطلبات الجماهير في كافة المجالات وقد عبر روسو على أنه ليس هناك صاحب سلطة مطلقة مستبد ولا صاحب سيادة إلا الجماهير على السواء هذه هي الفكرة التي تسلطت على روسو وانبثقت على أثرها فلسفته في العقد الاجتماعي .

وقد أشار روسو على أن هذا الالتقاء الجماعي يتمثل في صورة « الكل » الذي يتكون من الأفراد كجزء من كل متكامل له ارادة مشتركة ومطالب واحدة ، فاذا ما كان هناك ، استبداد من الكل فبالتالي ما تستبد هي الارادة العليا المشتركة ، وهكذا لن يكون هناك استبداد لأنه في الواقع عندما يتنازل كل فرد بحقوقه للكل فانما بطريقة غير مباشرة يحافظ عليها لنفسه وذلك لأنه يضع حريته بين أيدي الجماعة التي نشأت عن طريق الارادة الفردية المشتركة وبالتالي فلزام على الفرد أن يقر لها السيادة في صورة ولائه للقانون العـــام المشترك الذي تعلو فيه الارادة العامة كل شيء دون تمييز أو اعلاء فرد على آخر فالمواطنين جميعا على قدم المساواة وأي قانون لم تقره الجماهـــير يصبح باطلا لا أثر له أو كيان .

كما أن روسو قد توصل بتفكيره الى الآثار التى قد تترتب على تركيز الثروات فى أيدى فئة معينة تستأثر بها وبالتالى تتحكم فى مقدرات الفئات المحرومة الفقيرة وعلى هذا الأساس فعلى الدولة اذا ما اتجهت الى اقرار المساواة بين الفئات الشعبية فعليها ألا تقصر منهجها على مجرد الحفاظ على الحريات وممتلكات الأفراد بالأوضاع التى عليها وانما يجب أن تبدأ من قاعدة واحـــدة متساوية وتزيل مظاهر عدم المساواة والتفاوت الساحق فى الممتلكات والحيازات الواقعية.

وعليه فعلى الأفراد جميعا على السواء التخلى بممتلكاتهم الى الجماعة بغية الحصول على الحرية المدنية والاقتصار بملكية كل ما تقدمه الجماعة له بحيث يكون هذا الالتزام نحو جميع الأفراد على السواء والصالح العام غاية عليا تسمو على السلوك الانسانى عامة وهكذا يقوم العدل والمساواة على أسس فاضلة أخلاقية.

ومما لا شك فيه أنه كان لروسو آثار عميقة فى اتجاهات الرأى العالمى وخاصة فى الحركات التحررية فى أمريكا وفى انبثاق الثورة الفرنسية واعلان وثائق حقوق الإنسان وسادت العبارات التى تؤكد سيادة الشعب وحق متابعته لسلوك الحكومات يبدل اعضاءها وفق ارادته متى انضحت انحرافاتهم وصارت عباراته لها قدسية خاصة فى التعبيرات عن الحرية يستشهد بها فى كثير من المواقف السياسية .

* * *

هكذا كانت مظاهر الفكر خلال التطور البرجـــوازى ، انفعالات واحساسات تجول بالعقول والصدور وعدم الرضا عن الأوضاع الاستبدادية المطلقة ومظاهر الاستغلال البشعة . وأخذت تلك الأحاسيس والأفكار فى التطور وتفتحت العقول وامتدت تطلعات البشرية الى أبعاد أكثر عدلا ورفاهية. وفى نفس الوقت أخذت مصادر الثراء بالنسبة لاصحابها فى الازدياد والتعدد

والازدهار وارتفعت مستويات المعيشة على حساب الطبقات الكادحة الفقيرة وما لبثت البرجوازية خلال القرن السابع عشر أن حظيت بالنمو والازدهار بفضل ثرائها حتى اتجهت لتشجيع الحكم المركزى الناشىء كنظام للدول القومية الحديثة وتحولت فى حكمها الى بيروقراطية مستبدة . ثم جاء القرن الثامن عشر بازدهار فى حركات التصنيع لا سيما فى انجلترا وفرنسا مما شد أوصالها ودفعها إلى إزدياد سيطرتها على زمام الأمور السياسية حتى أصبح لكلمتها الوزن والتقدير فى مجال الحياة السياسية والاجتماعية .

ومن هنا تتضح لنا حقيقة هى من خصائص الفئات الاستغلالية على مر العصور والأجيال فتلك الطبقة البرجوازية نجدها فى فجر نشأتها تتقرب وتؤيد الحكم المطلق وتمده بالعون نظرا لحاجتها لمزيد من القوة تمكنها من ارساء جذورها فى المجتمع ، نجدها على غرة انقلبت على هذا النظام الذى أصبح لها عثرة فى طريق نهبها للثروات واستغلال الفئات فتتجه للمكر والخديعة وتبحث عن نظام يعيد لها الاستقرار الذى تزعزع ويحقق لها الحرية بما يتفق ويلائم تطورها وتطور التفكير الاجتماعى .

فبدأت البرجوازية فى الترحيب بسقوط الحكم المطلق وتبلور موقفها هذا حيال ثورة انجلترا سنة ١٦٨٨ وكما كان أيضا ازاء الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ فقد عمدت الطبقة البرجوازية إلى إرساء أفكار وقيم جديدة فى نفوس الفئات الشعبية ودفعها بطرق دنيئة غير مباشرة وذلك باشاعة أفكار تحررية ملتوية تخدر بها الجماهير وارساء الأفكار التى تخدم بدورها مراكزها ومصالحها نحو تقديس حق الملكية الشعبية وحرمان السلطات من حقها فى الاعتداء عليها وألا يكون هناك حينئذ حق فى التنكر لها والثورة عليها وهذا ما كان بالفعل فى الثورة الفرنسية ، فكر يسعى للحرية والمساواة والأخاء وحق الاشتراك فى الحياة السياسية بينما كلها فى الواقع مجرد فلسفات مخدرة ومناصب وهمية لا يتطرق لها

فى الوابع جائع أو محروم فهى ثورة لقبت بثورة شعبية قامت من أجل القضاء على النبالة والاقطاع وارساء شعارات الحرية والمساواة والأخاء ولكنها فى حقيقتها مجرد شعارات لا تمكن من السيطرة عليها الا الطبقة البرجوازية ولا تحمى بدورها الا مكاسبهم ووجودهم .

وهتفت الفئات الشعبية للحرية بناء على مناقشات دارت بين الفلاسفة البرجوازيين وانخدعوا على أثرها واندفعوا الى الثورة التى أدت الى قيام النظام النيابى والمجالس المنتخبة والممثلين للأمة وسلم كل هذا الى الفئة البرجوازية التى امنت وجودها بالتكييف العلمى والقانونى بأن جعلت المنتخب يمثل الأمة كلها وليس الهيئة ، وبهذا يتحقق انقطاع الصلة نهائيا بين المنتخبين والناخبين طوال مدة عضويتهم وعليه فبدلا من أن تكون السلطة فى يد الملك ومنعزل بها أصبحت فى أيدى المنتخبين يسيرونها وفقا لارادتهم ومطامعهم الشخصية ، وبهذا ضمنت الطبقة البرجوازية عدم وصول أى فرد الى مقاليد الحكم والانفراد بها دون رقابة أو منافسة عليها ، لأن المرشح الكادح لا يملك نقودا تمكنه من ترشيح نفسه وانما سينقاد وراء من يلقى اليه حفنة أكبر من النقود .

وغدت البرجوازية ، بعد أن ارتفعت الى قمة المجتمع وسيطرت على مظاهر وجوده السياسية طبقة احتكارية انتهازية توجه النظم لصالحهم من أجل تنمية ثرواتها فكان من نتيجة اطلاق الحريات لأصحاب الأعمال أن أسفرت عن أبشع صور الاستغلال والاحتكار للطبقات العاملة .

وتبلورت آفات الرأسمالية وبرزت المنافسة الاستغلالية وعلى أثرها أصبحت الفئات العاملة تستغل أسوأ الاستغلال وتجمعت مصادر الثروات فى أيدى قليلة وعاشت الفئات العريضة حياة تسودها ألوان متباينة من الحرمان والبؤس والظروف القاسية وآفات الجهل والفقر والمرض .

وهكذا تتضح لنا حقيقة راسخة بأنه سواء فى خلال حياة العبودية أو الاقطاعية أو الرأسمالية لم يكن هناك إلا تفاوت طبقى رهيب انعدم فيه تكافؤ الفرص والمساواة سواء فى توزيع الدخول أو الثروات الوطنية وانبثقت الى الوجود معالم البطالة بأنواعها المتباينة وتبلورت معالم التحكم فى المقدرات والنفوس واندلعت بذور الصراع الطبقي ووقعت كل تلك الرواسب على كاهل الفئات العاملة الكادحة والطبقات الوسطى الصغيرة ، التى ولدت بالتالى ثغرات ضعف فى نفوسها من حيث تطلعها الدائب نحو السعادة والرفاهية والكمال التى كانت تنفذ من خلالها تلك الفئات المستغلة من أجل تسخير هذه الفئة الكادحة واستغلالها وتوجيهها نحو ما يحقق لهؤلاء الانتهازيين مطامعهم الدنيئة وغاياتهم الشيطانية وبمجرد أن يتم الاعتلاء والسيطرة لهؤلاء السادة على تلك الفئات حتى يتنكروا لجهودها وتأييدها ومساندتها فى مراحل صراعهم على السلطة .

ولكن لم تظل الحال على تلك الوتيرة ولم تظل الفئات المحرومة قابعة فى قواقع الحرمان والبؤس والسلبية ، ولكنها انطلقت تعلن التمرد فى وجه النظم الاحتكارية سواء أكانت عبودية أو اقطاعية أو رأسمالية مستغـــلة ، تطالب بحقوقها الانسانية وحقها فى الحياة والسعادة وبهذا انبثقت للوجود معالم نظام متكامل ومن خلاله أصبحت للحياة معنى يستهدف تنظيم الوجود البشرى وتحرره من قيود الماضى المتزمته انها معالم الاشتراكية بأركانها الانسانية الخالدة ومجالها الخصب لنمو وتحقيق كافة متطلبات البشرية بتنوع مظاهرها وحدودها .

تطور الفكر الاشتراكى

ان تاريخ تطور الفكر الاشتراكى هو التـــاريخ الذى يسجل فى سطوره مراحل نضال الانسانية من حيث تحقيق الكيان والذاتية الفردية بأعمق صورها وأشملها تعبيرا عن حقيقة خلجاته ومتطلباته ونزعاته الكامنة التى تسمو بوجوده الى آفاق الانسانية المتكاملة الخالدة التى تتبلور فيها وتسمو بكرامة الفرد وتتبلور معالم الاستقرار الفكرى والمادى خلال البيئة الحاوية له .

ومن خلال هذا النضال نقف على كثير من المحـــاولات المستمـرة والانتفاضات الجادة نحـو تحقيق وتوفير حاجات الفـــرد اما بصورة خاصة أو بصورة شاملة تتضمن متطلبات المجتمع على السواء .

وبتتبـع مراحل الفكر الاشتراكى نجد أنها كانت تنبثق من خلال ظروف وأحداث ذات طابع له خصائص ودلالات معينة تتلاقى فى صفـات متشابهة من حيث التكوين والآثار .

فالفكر الاشتراكى دائما وأبدا ينبثق للوجود فى مراحل يسود فيها الظلم ويعم الاستغلال والتحكم وتتضح فيه معالم استغلال الانسان لأخيه الانسان وعلى مر آلاف السنين ومئات القـرون تبلورت حقيقة واضحة المعـالم والآثـار ألا وهى كلما كان هنـــاك استئثار من قلة معينة فى المجتمع لمصادر الثروات والأدوات الانتاجية ، كلما كان هناك فئات عريضة تئن تحت نيران الظلم وتنوء ظهورها من أثقال الاستغلال والسخرة والتبعية .

وفى ظل كل مجتمع من تلك المجتمعات الشاذة ذات التفاوت الطبقى من كافة الوجوه تتكون هناك أقلية تعيش عيشة البذخ والترف بينما الأكثرية تتجرع كؤوس الموت والحرمان ، تشقى وتكدح من أجل مايقيم أودهم وذلك فى مقابل رفاهية تلك الأقلية التى تتحكم فى مقدراتهم ومصادر معيشتهم ووجودهم .

وطوال تلك الآلاف من السنين ظل الفكر الانسانى فى صراع ومحاولات دائبة من أجل القضاء على تلك المظاهر المنحرفة عن الغايات الانسانية وانعدام الحقوق البشريه خلالها وهذا مايملأ قلوب المحرومين لوعة وحسرة لوجود هذا الطغيان وهذا الكبت والاستغلال الناشىء عن قلة فاسدة معوجة.

ومتى تلاقت تلك الأفكار الانسانية المتشابهة تقاربت مشاعر وأحاسيس الفئات العريضة المتطلعة الى حياة يسودها العدل والمساواة وتوحد السلوك البشرى فكريا وماديا وانطلق نحو غاية تتبلور فيها معالم العدالة والاخاء والحرية والمساواة الحقيقية وتاريخ تطور هذا الفكر الانسانى خلال تلك المراحل الهادفة الى تلك الحقوق البشرية الخالدة هو سجل يحوى فى سطوره تاريخ تطور الفكر الاشتراكى على مر السنين والأجيال .

والاشتراكية بمضمونها العميق ومعانيها السامية لم تكن فى وجودها وليدة القرن الثامن عشر أو التاسع عشر أو ترجع إلى عصر النهضة بصفة عامة وانما يمتد وجودها الى أعماق بعيدة ترجع الى سنين طويلة فيما قبل الميلاد وان كانت تعبر فى وجودها بألفاظ مختلفة متعددة وكانت فى نفس الوقت مضمونا واحدا لأسماء كثيرة مترادفة تهدف الى غاية واحدة وان تعددت السنين وتفاوتت الظروف التى تنبثق الى الوجود من خلالها فكرة الحياة الاشتراكية الخالدة وان كان هذا الفكر الاشتراكى يقترن تارة بالفكر الخيالى والوجود اللامحسوس وتارة أخرى يتخذ الصفة المادية .

وتاريخ الفكر الاشتراكى الخيالى قد تسلم دعوته بعض الانبياء القدماء

الذين اندفعوا يدعون الى التآخي الانساني في مراحــــل كان يسودها الفساد والأفراد مندفعون نحو الملذات على حساب الفئات الفقيرة المحرومة ومن هؤلاء القادة نجد عاموس ويوشع وأشعيا وأرميا وحزقيال وغيرهم . فنجد هؤلاء قد أخذوا يتأملون مظاهر الوجود وتلك الهوة السحيقة التي يكاد ينزلق فيها كان الفئات وتسوقهم نحوها أعمالهم الفاسدة الشريرة ونفوسهم المتعطنة .

وكانت دعواتهم تستهدف الاصلاح وتقويم النفوس واقامة العدل وجعل الحق والرحمة تتصدر السلوك الانساني عامة وكان سخطهم أيضا عـلى شرور وفساد رجال الدين وتنكرهم لقصر العبادة على حرق البخور ووضع التعاويذ ، وبشروا بهلاك هذا القوم ونجاة هؤلاء المحرومين ووعدوهم بملكوت سماوي تتوفر فيه مايتطلعون اليه وينشدونه في حيـاتهم ملكوتا يكون العـدل شريعته والخير قوامه والرفاهية شعاره والمساواة مقياس الحياة فيـه وتتبدل حياتهم من أحزان وهموم إلى سعادة ورفاهية .

وهنـــــاك أنماط أخرى من الصور المثالية المتكاملة التي اتجهت لصياغتها أفكار بعض الفلاسفة القدماء وجعلوها تتضمن في محتـواها أعمق معاني الاخاء والمساواة والرفاهية التي تؤدي بدورها الى تحقيـــــق أركان السعادة من الحق والخير والجهل.

ومن تلك الصور جاءت دولة أفلاطون المثالية التي صورها عام (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق. م.) واليوتوبيـا « لتوماس مور » (١٥٦١ — ١٦٢٦) وأطلانطـا الجديدة « لفرنسيس بيكون » (سنة ١٥٦١ — ١٦٢٦) وكريستيا نوبوليس « لجوهان فالنتين اندريا » ومدينة الشمس لـكامبانيلا (سنة ١٥٦٨ — ١٦٣٩ والفالنستير « لشارل فورييه » وهذه جميعا صور لحيـــاة انسانية فيها تقديس للحياة الروحية والاستقلال وإيجابية التحـرر من النفـوذ الاجنبي وتنظيم العلاقات بين الدول بغية الاستمرار في الوقوف على ماتوصل اليه العلم الحديث ومناهج التطور

وقد آمن كل هؤلاء بأن الفقر يجعل الناس كائنات لا قيمة لها والثراء الفاحش يحول أصحابها الى كائنات وقحة مغرورة لا أثر للعاطفة والأحساسات الانسانية فى نفوسهم وخلال تلك الدول المثالية لا يكرم انسان إلا بقدر ما يشقى فى عمله وبقدر أهمية العمل تبعا للمجهود الذى يحتاج الى اتمامه والحكم فيها يكون عن طريق الاختيار الحر لفئات ذات ملكات والمام بكافة فروع المعرفة .

ونلتقى من تلك الأفكار دولة أفلاطون المثالية واليوتوبيا كأمثلة متكاملة لهذا الفكر الخالد وان كان فيهـا بعض الالتباسات والتنكر للواقع المادى للبشرية ولكنها فى حد ذاتها أفكار خالدة مازالت تعتبر مناهجها معايير لقياس مدى تكامل الحياة الانسانية بصورة عامة .

وقد جاء الينا الفيلسوف افلاطون بدولته المثالية ووضع لها من الأسس والتعاليم التى تنظم العلاقات البشرية بين أفرادها مما يؤدى الى خلق مجتمع متكامل متناسق يتفق والطبيعة الانسانية فى مفهومها الخاص .

دولة افلاطون المثالية

تتكون تلك الدولة من بضعة آلاف من السكان لا يعلو أحد منهم فوق الآخر وانهم جميعا على قدم المساواة فى كافة أوجه الحياة بحيث يكون هناك تنظيم معين من حيث انجاب الأطفال حتى لا تأتى نفس بشـــرية الى الوجود بدون أن يكون لها من القدر الكافى من الموارد الطبيعية التى تضمن لهـا حياة فاضلة سعيدة .

وقد قسم افلاطون الفئات الشعبية الى ثلاث فئات .. الفئة الأولى وهى الطبقة العاملة التى تقوم بانتاج المواد اللازمة للحياة من مأكل وملبس وشراب وتقوم ببناء المساكن . ثم حدد الفئة الثانية وهى فئة المحاربين التى تقوم بحماية هذا الوجود الانسانى المتكامل ضد أى عدوان خارجى ثم هناك الفئة الثالثةوهى فئة الحكام ورجال الدين وتؤل اليهم مسئولية تنظيم العلاقات بين الفئات الشعبية والتوفيق بين ارادتهم ومتطلباتهم الأساسية ونظرا لما لهذه الطبقة من حساسية وخطورة تبعا لجسامة مسئوليتها فيتحتم على الفئات الشعبيــــة الالتزام بصفات معينة بحيث تتوفر مظاهرها فى هؤلاء الحكام وان يتم تدريبهم بدقة وعناية ممـا يضمن حسن اعدادهم وتأهيلهم لتسلم أعباء تلك المسئولية الحساسة .

وقد وضع افلاطون عدة مناهج يجب على جمهور تلك الدولة أن يلتزم بها فى سبيل الحفاظ على مظاهر دولتهم المثالية من كافة مظاهرها .

آثار الفضيلة الخالدة

استند افلاطون فى تحديد معالم وآثار الفضيلة فى أى مجتمع من المجتمعات الانسانية على حكمة جاءت على لسان استاذه الفيلسوف سقراط « أن الفضيلة هى المعرفة » وتلك العبارات فى تكوينها البسيط تحتوى على معان عميقة للوصول الى الخير والفضيلة التى يجب أن تستند على المعرفة والتى لن تتأتى الا بالبحث الدقيق .

وألا تأخذ الموجودات من حيث الواقع المادى أو الروحى كفروض وقضايا مقدسة وانما يجب أن يشملها البحث والتمحيص فى ظلال التجرد من المصلحة الذاتية وانعدام البحوث من زوايا الأنانية .

التعلـــيم

اختص افلاطون المناهج العلمية بأهمية خاصة . وجعل غايتها تستهدف المعرفة بفروعها المتباينة من أجل انشاء المجتمع الفاضل المثالى .

واهتم افلاطون بتربية النشىء والجيل الصاعد الذى يعتـــبرون أوصياء المستقبل وتنعقد عليهم الآمال فى تسلم القيادة الجماهيرية وقد قسم المناهج العلمية من حيث غايتها العامة الى قسمين الاعداد المعنوى والاعداد المادى والذى ينفرد باعداد الاجسام الصحيحة المتكاملة السليمة .

الاعداد المعنوى الفكرى

اهتم افلاطون بالموسيقى وانماء غريزة التذوق الايقاعى لما تعود بآثارها على السمو الفكرى والارتقاء بالمشاعر والأحاسيس مما يجعل هناك تذوقا للانسجام والتوافق الطبيعى الذى تنعكس آثاره نحو تذوق كل شيء فى الوجود متى كان بصورة متكاملة منسجمة وانها تجعل هناك قدرة فى النفوس البشرية المصقولة على ادراك أى اختلال فى تنسيق معين فيتقرب بذاته من كل ما هو متكامل وينوء على ما هو كريه ناقص . كذلك جعل هناك رقابة خاصة على نوع الموسيقى التى تقدم الى عامة الشعب خوفا من أن يتسرب اليهم ما هو ردىء أو يدعو للرزيلة والانحراف فيأتى بعواقب وآثار غير مرغوب فيها والتى قد تفسد من احساسات العامة بدلا من السمو بها الى آفاق الجمال والاحساس بالتناسب .

أما بخصوص الأطفال الصغار فيجب أن توجه اليهم عناية خاصة وتربية قائمة على أسس سليمة بناءة وعليه فيجب أن يتلقوا من القصص والأساطير القديمة ما ينمى فى نفوسهم روح الشجاعة والاقدام والتقرب من الفضائل وتنفث فى نفوسهم مبادىء الحق وضبط النفس، كما يجب أن تمجد تلك القصص الآلهية وتقرب النفوس منها وألا تكون بها فجوات يمكن أن تنتقد منها قدسية الآلهة أو تسخر منهم ، وبهذه التربية الروحية السامية يكون هناك جيل صالح قادر على ادارة الفئات الشعبية من بعد كذلك يكون هناك تعداد ضخم من جنود المستقبل على حماية بلادهم .

وهكذا يجب أن تستند مناهج وأساليب الدراسة على طرق حرة بعيدة عن وسائل الارغام والاجبار أو الضغط والتهديد وأن تنتهج بطريقة سلمية الغاية منها هو الوقوف على الميول الطبيعية والفطرة الشخصية التى يختص بها كل فرد دون الآخر وبهذا يمكن اكتشاف العناصر والخامات الطيبة والابتعاد عن أساليب الاستعباد والاذلال .

الاعداد المادى البدنى

بعد تلك الفترة من الاعداد الابتدائى للنفوس وتهيئة العقول لتلقى الدراسة التاريخية الحقة يبدأ الاعداد لتلقى الرياضة البدنية والتدريب العسكرى حتى سن العشرين وهذا لاعداد الجسم السليم الذى يحتوى على العقل السليم المتكامل ، وأن التدريب العسكرى يهدف إلى خلق الرجولة المتكاملة والاعتداد بالنفس وتحمل المسئولية والشعور بالذات الانسانية وحب الفداء فى سبيل العقيدة .

وبين تلك المرحلة من الإعداد الفكرى والبدنى يكون هناك فترة لأختيار الطوائف الممتازة من الذين لديهم الاستعداد والفطرة لتلقى المزيد من العلوم المتطورة من حساب وهندسة وفلك وموسيقى حتى يتسنى خلق الاستعداد الفطرى للتفكير المجرد وسرعة التعرف على خصائص الموجودات ويستمرون هكذا حتى سن الثلاثين فيتلقون علوم المنطق الفلسفية بما فيها من اكتشاف للأجناس والأنواع والفلسفة بلاشك تسمو بالفكر الانسانى المتطور نحو الإحساس بجواهر الموجودات من حيث العدالة والحق والجمال وبالتالى يقتربون بسلوكهم نحو الكمال ، ومن يتفوق منهم يبرز فى هذا المجال ويثبت قدرته على سرعة تجاوبه وتوفيقه بين المثالية والظروف الطبيعية فانه يرتقى إلى طبقة الحكام المستقلين أو القضاء أو المشرعين .

ويتولى كل واحد منهم دوره فى الحكم كالتزام عليه وواجب لامفر منه

وهذا الحاكم من الأفراد الذين تكمن فى نفوسهم الاحساسات العميقة بمعانى الحق والشرف والشجاعة وفهم من الذاكرة الواعية وتحرم عليهم الملكية الخاصة وإنما يتقاضون أجورهم من المواطنين ومحظور عليهم اقتناء المعادن النفيسة أو التحلى بها لأنها تعتبر من الملذات الدنيوية التى تنتهى بالفناء والعـــدم بينما يجب أن يتحلوا بمـا هو دائم مستمـر وهى الصفات الأخلاقيـــة السامية والقيم الروحية الخالدة .

المرأة فى دولة افلاطون

كان للمرأة فى جمهورية أفلاطون تقـدير خاص جعلها تتساوى فى حقوقها مع الرجال وأن مابين الجنسين من اختلاف وتفاوت فى الطاقة والقدرة على العمل هو اختلاف فى الدرجـة وليس فى النوع أى أنه ليس هناك أعمـال يختص بها الرجال دون النساء وأن الجميع على قـــدم المساواة أمام المتطلبـات الأساسية للحياة .

وللنساء الحق فى الاشتراك فى الحروب والعمل والتعليم إلى آخر مراحله كذلك لهـا الحق فى تسلم زمام الحكم وقيادة الجمـاهير وليس هنـاك تفريق إلا تقسيم العمل بالنسبة لهن بما يتناسب مع قدرتهن على العمل وما لديهن من طاقات متوفرة تمكنهن من الاستمرار فيه والقيام بأعبائه ومسئوليته حسب الاستعداد الفطرى لكل منهن.

تحديد الاختصاصات فى مجال العمل

كان لأفلاطون آراء خاصة إيجابية وأخرى سلبية فى مجال العمل لبعضها آثار عميقة لاتزال العقول الحديثة تنادى بها وتعمل على تطبيقها فى مجال التصنيع والإنتاج ، كما وإن له آراء أخرى سلبية فى مضمونها لايصح أن تصدر من فيلسوف كأفلاطون يدرك معانى الحق والخير ويدرك الغرائز البشرية والمتطلبات الأساسية للوجود الإنسانى وحقوق الأفراد فى التعبير عما يجول فى نفوسهم وحقهم فى تقرير مصيرهم ووضع النظم التى تنظم علاقاتهم وتوفق رغباتهم. فكيف تغاضى أفلاطون عن تلك الحقوق الانسانية الخالدة فى اعتلاء السلطة وكيف جرد عامة الحرفيين منها وجعلها حقا قاصرا على فئة الفلاسفة الحكام ، لهم الحق المطلق فى وضع السياسات التى تتراءى لهم واعتبر هذا أنجح السبل لتدعيم مظاهر الحق والخير بالنسبة للفئات الشعبية والتى ماعليها إلا الالتزام بها والرضوخ لأركانها وتعاليمها وليس هناك حق لهم للاعتراض عليها أو مجرد النقاش فيها فهذا ليس من اختصاصهم وعلى عامة الشعب أن ينصرف لأعماله ويترك السياسة لأصحابها المتخصصين فيها وذوى الكفاءات المعينة التى تؤهلهم لهذا العمل الحساس.

ولكن بجانب هذا القصور فى فلسفة أفلاطون تجاه الموقف السياسى فهناك الآراء الايجابية من حيث تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات كل فى مجاله وفقا لميوله ورغباته ومدى استعداده الشخصى الذى هيأته له طبيعته ، وعلى كل شخص أن يقوم بالعمل ويتفرغ له . فهذا مما سيؤدى بلاشك إلى ازدياد المهارة الحرفية واتقانها . وعلى الدولة مسئولية انماء هذا الاستعداد وتهذيبه على أسس علمية متقدمة حتى تصل كل موهبة إلى ذروتها بما يحقق انتاج متكامل متقن.

اشتراكية افلاطون

كانت نظرة افلاطون العامة للفئات الشعبيـــة هى نظرة انسانية تمجد الحقوق البشرية وتؤكد هذا التلاقى الغريزى بين الفئات الشعبية منذ الخليقة نحو استكمال مظاهر وجودهم على أساس تبادل الحاجات وعليه فليس هناك حق لأحد أن يستعبد آخر ويستغله ومن هنا جاء تقسيمه للفئات الجماهيرية فى نطاق دولته فالحكام يدعون حراسا ومساعدين والرعايا يدعون المواطنين المنتجين (١) .

والمعايير التى على أساسها يتم وضع كل فرد فى مجاله واختصاصه هى مـا عبر عنها افلاطون بالنبوغ والاستعـــداد الفطرى والتى بواسطتها بين توزيع المواطنين على الطبقات الاجتماعية ومن أظهر نبوغا وتفوقا فى مجاله قد يرتفع الى الطبقة التى تعلوه ، ومن يثبت فشله وانحرافه ينحدر الى التى تدنوه .

كما وأن أفلاطون قد أشاد الى حق النمو الحر للصفات الجسدية والعقلية ازاء المواطنين على السواء فكل له الحق فى العلم طالما كان عنده الاستعداد والميل وطالما يبدى استجابة نحو مناهجه المتباينة — وكل فرد فى جمهوريته له الحق فى العلاج متى يتخلل الى جسده المرض ويعجزه عن العمل فكان هناك التزام نحو الأطباء للمحافظة على صحته وأبدان الجماهير كما لم تتجاهل الفلسفة الافلاطونية انحراف بعض الغرائز واندفاع البعض للتعدى على حقوق الآخرين فقد أوجب

---

(١) مشكلات فلسفية « للاستاذ عبده فراج »

افلاطون تخصص بعض الأفراد وهم من الطائفة الممتازة التى تتصف بالنبل والشرف والعدل والشجاعة ويقع على كاهلهم مسئولية الحفاظ على النظام وحماية الممتلكات الشخصية فوضع النظم والقوانين التى تسيطر بواسطتها على السلوك الانسانى وتجبره على الالزام بالقوانين الوضعيـــة وعليها أيضا متابعة السلوك الجماعى لتهذب المنحرفين وتحافظ على الحقوق .

شيوعية افلاطون

« لن يكون لأحدهم زوجة خاصة به ، وهكذا يكون الأبناء على المشاع فلا يعرف الأب أبناءه ولا الأبناء آباءهم »

هكذا قدم افلاطون اقتراحا نحو زوجات الأوصياء المشرفين على أمور الدولة والمنظمين لها بعد أن تدارك بنفسه علة العلل فى الأسباب التى قد تؤدى الى ظهور المحاباة وتفضيل الأبناء والوقوف بجانبهم حتى على حساب الفئـــات الجماهيرية وجعل هؤلاء الأبنـــاء بحكم سيادة آبائهم سادة على باقى الأفراد يستغلون سلطانهم فى ارتكاب الذنوب والمعصيات وعليه فقد حرم افلاطون على الفئات الحاكمة وعلى مساعديهم الملكية الخاصة من حيث الزوجات وجعلهن شائعات بين الفئات الحاكمة فلا يختص أحدهم باحداهن وبهذا يكون أولادهم مشاعين .

أولا : عدم تعرض هذا الجنس الممتاز من الرجال والنساء للانقراض والانكماش فتصبح الاسرة الحاكمة أسرة واحدة ترتبط برباط الدم والروح فاذا ما شب هؤلاء الأبنـــاء أصبحت نظرتهم لهؤلاء الحكام نظرة الابن لأبيه نظرة تملأها الاحترام والتقدير والولاء .

ثانيا : تجنب تولد الفرقة والأحزاب بين الفئات الحاكمة وتضارب الغايات والمصالح .

هـذا ما عبر عنه افلاطون من حيث شيوعية الزواج أما عن الملكية فكان له رأى آخر يحرم أيضا الملكية على هؤلاء الحكام بينما يبيحها للفئات الشعبية فلها الحق فى اقتناء الأحجار الثمينة وتكديس الثروات طالما أنها ستقتنيها عن طريق العمل والتجارة وليس عن طريق استغلال السلطة والمركز كما هو الحال اذا ما سمح لفئات الحكام من استثمار الثروات، وتكديسها فما لا شك فيه أنها سوف تستند على حريتها وعدم تعرض أحد لها بالنقد أو الحساب فتعبث فى الأرض فسادا وطغيانا لا يحدها أو يسيطر عليها شهواتها ومطالبها الخاصة . واستند افلاطون فى هذا الحرمان نحو الفئات الحاكمة على حسن التربية الاخلاقية التى تسبق اعتلائهم لمقاليد الحكم ومدى ارساء القيم الاخلاقية والمبادىء السامية التى تهذبهم وترتقى بنفوسهم الى مستوى فكرى يدركون أن للحياة قيمة أسمى من اقتناء الثروات وتكديسها .

هكذا حدد افلاطون معالم وأبعاد جمهوريته الفاضلة التى تتلخص فى اعلاء مثل عليا وجعلها غاية منشودة يتطلع ويسعى اليها كل فرد على السواء ومن خلال الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها بطبيعته وخلال تلك الحياة يقدم كل فرد أقصى ما يستطيع أن يقدمه الى أبناء مجتمعه من جهد وطاقة .

وعلى رأس تلك الدولة توجد فئة ممتازة لها من المواهب والاستعــــداد المتقدم ما يؤهلها للتحكم فى مقـــدرات اخوانهم فى الدولة وهى الفئات العاملة وتلك الفئة الحاكمة يجب أن تربى تربية فاضلة وعلى أسس متقدمة تسمو من خلالها القيم الروحية عن المظاهر المادية حتى يكونوا أقرب الى الحق والخير والجمال وهى خير ما تصبو اليه النفوس البشرية .

المدينة الخيالية لتوماس مور (يوتوبيا)

عرض توماس مور صورة لمدينته الخيالية عن رحلة بحرية قام بها ملاح برتغالى ذو ثقافة يونانية واسعة يدعى رافائيل هيثلوداى .

وتشاء الأقدار أن تقف سفينته على جزيرة « يوتوبيا » التى تركت فى نفسه آثارا عميقة عن مدى التقدم والازدهار الذى حققتـــه تلك المدينة ذات الشكل الهلالى وتبلغ من العرض ميلين وتتكون من أربع وخمسين مدينة تتفاوت المسافات بينها من أربعة وعشرين ميلا ولا تزيد المسافة بينها عن مسيرة يوم كامل وتتوسطها جميعا العاصمة « أموروت » .

والزراعة هى حرفة أساسية لسكان تلك المدن لأنها أساس الصناعة فى مدينة مور الخيالية فعلى كل فرد أن يلم باصول الزراعة إذا كان من سكان المدينة بغية تضامنهم جميعا لا سيما فى فترات الحصاد على جمع الحبوب وغيرها من الحاصلات الزراعية .

والانتاج الزراعى فى تلك المدينة الخيالية يتم وفقا لتخطيط معين بما يتفق وحاجة المجتمع وكل فرد فيها يختص بعمل معـــين وتقسم ساعات النهار على أساس ست ساعات للعمل وثمان ساعات للراحة وباقى اليوم يقضيه الأفراد وفقا للميول الشخصية ، وليس هناك مجال لاستخدام الآلات المتقدمة فى مقابل أن يبذل كل من الأفراد أقصى طاقته ومجهوداته فى تأدية الأعمال القائم بها .

ويتم تبادل المنتجات بين أبناء المدن عن طريق ممثل لكل أسرة يتوجه الى أحد الأسواق المقامة فى مناطق متفرقة من المدينة تتجمع فيها المنتجات كل على حدة ويأخذ كل ممثل اسرة ما تحتاج اليه أسرته بدون ثمن نقدى وبدون أن يأخذ شيئا فوق طاقته الاستهلاكية وليس هناك بطبيعة الحـــال حاجة لاقتناء النقود التى هى مصدر الخير والفضيلة ، ومصدر كل شر وأساس كل رزيلة كما وأن هنالك نظاما خاصا للمساكن دقيق فى بنائه رائع فى تصميمه مزود بـكل ما يتوفر لها مظاهر الجمال والابداع .

وتلتقى الأسرات فى ساعات الطعام ليستمعوا الى بعض المقالات التى تتعلق بالآداب والفنون الرافية والاعتزاز بالفضائل الحسنى وفى أثناء وجبات العشاء تعزف الموسيقى أنغام شجية فى جو يتشبـع بأنواع البخور بحيث يشمل السرور والسعادة الجميع .

ونظام الحكم فيها نظام ديمقراطى قائم على انتخاب فرد من كل ثلاثين اسرة وكل عشرة من هؤلاء الرؤساء يتم انتخاب رئيس منهم وهؤلاء الرؤساء ينتخبون أميرا لهم مدة الحياة (١) .

ولكن فى الأمور الهامة تعرض تلك المشاكل على أفراد الأسرات لإبداء آرائهم بخصوصها وعليهم متابعة السلوك الجماعى ومنع المنحرفين من الاستمرار فى انحرافهم بل كل واحد منهم يؤدى واجبه بجد واهتمام .

وإذا ما انتقل فرد من أفراد اليوتوبيا الى مكان آخر يجب أن يحصل على جواز سفر يخول له حق المرور بشرط اذا ما ازدادت مدة بقـــائه فى مدينة أخرى غير مدينته عليه أن يقوم بنفس العمل الذى تخصص بقيامه .

---

(١) الحركات الاشتراكية (هارى وليدلر)

والتعليم فيها له اهتمام خاص لا سيما علوم الحساب والهندسة والأعمال الزراعية والقراءات المفيدة .

وهكذا تكون غاية اليوتوبيا توفير السعادة والرفاهية والاستقرار النفسي والمادي لسكانها ومنع الأفراد من ارتكاب ما يجلب التعاسة والحزن لأفراد آخرين .

ثم ننتقل بحديثنا من مجال التفكير الاشتراكي الخيالي الى المحاولات المادية التي قام بها بعض من اشاد لهم التاريخ بزعم الفكر الاشتراكي وأول من أرسوا مناهج تفكيره المادية مع مسايرة التطور السريع للرأسمالية وآمنوا في أعماقهم بأن التنظيمات المعقدة للنظم الرأسمالية ما هي إلا عقبة في سبيل تحرر الانسان ، كما وانها اذا ما تشعبت في شتى الميادين تتبلور آثارها على هيئة أزمات اقتصادية متلاحقة ويكون هذا على كاهل الطبقات العمالية وعلى حساب تدهور القيم الاخلاقية .

ومن هنا جاءت حتمية ازالتها وتحطيمها ليحل محلها التنظيم الاشتراكي في كافة مظاهر الحياة حتى يشفى الانسان من بؤسه ويرتقي بوجوده من الفوضى التي تستعبده وتسوده ومن هؤلاء القادة سنكتفي بالتعرض لكل من الفكر الاشتراكي لسان سيمون و روبرت اون و جون ستيوارت ميل ، ثم بالاشتراكية الفابية .

آراء سان سيمون الاشتراكية

كان لآراء سان سيمون عميق الأثر في الفكر الاشتراكي عامة من حيث أنه استهدف في فلسفاته الاجتماعية والاقتصادية الارتقاء بتلك الفئات المحرومة التي تئن تحت مظاهر البؤس والاستغلال والحرمان .

فقد اتجه سيمون باعتبار أن الصناعة تتصدر مظاهر الوجود البشرى من حيث كونها المصدر الوحيد لكافة الثروات والمصادر المادية اللازم توافرها من أجل الرخاء والسعادة والكمال .

ومن هنا اتجه بتفكيره نحو تطوير النظم الاجتماعية والوصول بها الى آفاق الكمال والتناسق ووضع لهذا التنظيم بعض المفاهيم والأركان التى يمكنها الوصول بالفئات الاجتماعية الى تلك الغايات التى تتطلع اليها الانسانية عامة .

ومن ثم ينبغى ازالة كافة العقبات القديمة والتى تعتبر مترسبة ومتوارثة من قبل النفوس التى تحول فى مضمونها دون التقدم المنشود ، وهذا لن يتحقق فى مفهوم سيمون الا عن طريق التقدم بالمعرفة والارتقاء بمفاهيم الفئات العليا وارساء القيم الثورية فى نفوسهم لتمكينهم من الخروج عن النظم الاقطاعية والنبالة المتوارثة الى النظم الصناعية العلمية المتقدمة .

وينبغى كذلك اختفاء الطبقات والقضاء على اسطورة الفئات العاطلة فى المجتمع وذلك عن طريق تكاتف الجهود لانشاء رابطة عالمية تضمن العمل للجميع وتكفل لكل عامل أن يحصل على ما يستحق ازاء عمله ، وكنتيجة لوجود العمل المضمون يتعين أن يعمل الجميع فيكون الكسول طفيليا ، ثريا كان أم متسولا ولا يمكن أن يقبل عند الجماعة لأنه يأكل ما ينتجه الآخرون فهو بهذا لا يزيد على كونه لص (*) .

وهكذا فالمساواة فى مفهوم سيمون تعنى بأن كل فرد يجب أن يحصل من المجتمع بقدر ما يبذله من جهد وطاقة وبهذا تصبح كل الفئات الاجتماعية تعمل فى ظل تضامن اجتماعى هدفه الرفاهية والرخاء ووسيلته انجاز الأعمال

(*) الحركات الاشتراكية (هارى ليدلر)

بطرق سليمه ذات فاعلية وايجابية .

وعن الملكية الفردية فقد شدت اليها أفكار سان سيمون واختصت بجانب كبير منها واستهدفت تنظيمها بطرق تخدم فى النهاية الصالح الانتاجى العام وانتهى الفكر السيمونيزم (*) الى أن تلك الملكية التى تأتى للفرد عن طريق الصدفة والوراثة ويصبح بهذا تلقائيا يتحكم فى ادارتها والاحتفاظ بعائد أرباحها حتى ولو كان هذا الربح الفائض على حساب الفئات العاملة بحرمانها وبؤسها وشقائها ، فيجب أن تبدأ المساواة بين الفئات من نقط متساوية وبداية واحدة من حيث المستوي المادى والفكرى ويصبح بعد هذا الكل نصيبه حسب طاقته وعمله ، وتتحقق عدالة التوزيع المتساوية للملكية .

ثم يلى هذا اتباع أنجح السبل التى يمكن استخدامها من أجل تسيير عجلة الانتاج بحيث تؤول ادارتها الى ايدى ذات كفاءة وخبرة حتى يضمن بذلك أن يكون هناك توازن فيما بين توزيع عمليات الانتاج فى مظاهرها المختلفة ، فلا يكون هناك تبذير فى احداها على حساب قصور فى الاخرى ، وانما هناك تنسيق ونظرة عليا بين حاجات الاستهلاك وموارد الانتاج المتوفرة .

وهذا لن يتأتى بمفهوم السيمونيزم إلا باستيلاء الدولة على وسائل الانتاج وتوزيعها تبعا للحاجات ووفقا لسياسة عليـا سبق دراستها وتخطيطها بما يتفق والصالح العام ، وبهذا يتم منع الاحتكار الفردى لوسائل الملكية الانتاجية والتى يصتتبعها احتكار للجهود الانسانية التى لا تملك إلا جهودها وطاقاتها للعمل فى سبيل لقمة العيش .

ومن ثم فيمكننا الانتهاء بتلخيص آراء (سان سيمون) واتباعه فيما يلى :

(*) السيمونيزم « الآراء التى انتهى اليهـا سان سيمون وتوارثهـا فيما بعد تلاميـذه واتباعه وعرفت بمذهب « السان سيمونيزم » .

أ ـ الدولة هى التى يمكن أن نقع على كاهلها أعباء تنظيم عمليات الانتاج وخلق اتزان فى كافة القطاعات ووفقا لاحتياجاتها .

ب ـ القضاء على الفوضى فى عمليات الانتاج والاستهلاك .

جـ ـ منع استغلال الانسان لأخيه الانسان .

آراء روبرت أوين الاشتراكية

يعتبر روبرت أوين من مؤسسى النظام الاشتراكى فى انجلترا .

وقد جاء بتعاليمه ومناهجه وفلسفاته الاجتماعية والاقتصادية فى ظروف أدت فيها الثورة الصناعية الى :

أ ـ تكديس الثورات فى أيدى رجال المال .

ب ـ انتشار البؤس والمرض والبطالة بين الفئات العمالية ومن هنا كانت فلسفته تؤمن بحقوق تلك الفئات وتتطلع الى تحقيق مجتمع يشعر فيه كل فرد بانسانيته وكيانه ويحصل على كافة حقوقه واحتياجاته من قبل المجتمع .

وكانت فلسفة أوين تستهدف تحقيق السعادة للانسان وتؤكد تلك الحقيقة المعبرة عن هذه الانتقاءات الاجتماعية بصفة عامة نحو تحقيق أعمق وأدل معانى السعادة لأكبر قدر من الأفراد ولكنه استدل على انه تبعا لخضوع الانسان بفئة تحيط به ويعيش فى نطاقها ويتعامل مع ابنائها فهذا مما يؤثر فيه ويجعله يختص بصفات معينة أما من حيث السلوك الطيب أو الشرير .

وعليه فهو يهتم اهتماما بالغــا بمظاهر البيئة الاجتماعية والتى تتبلور فى عدة نقاط لها أعمق الاثر فى الحياة الانسانية وأخذ يتعرض لكل منها من حيث :

أولا ـ التعليم يجب أن يكون اجباريا عاما لكافة الفئات بحيث يبدأ بتعليم الأطفال المبادىء الأخلاقية السامية وارساء مبادىء التعاون والتضحية فى نفوسهم حتى يتمكن هذا المجتمع من خلق النفوس المتكاملة السامية البعيدة عن مظاهر الانحلال والسلبية والتى لا تجد طريقا أو ثغرة يمكن أن تتخلل منها .

ثانيا ـ يجب توافر مظاهر الثراء فى احضان هـــذا المجتمع حتى ترتقى احساسات الفئات ويسمو وجودهم ونقضى على هذا المجال الخصيب الذى تنمو فيه نواة كثير من الشرور والانحرافات إلا وهو مجال الفقر والحرمان .

ثالثا ـ يجب توفير العمل لكل من يطلبه وذلك عن طريق انشاء مكاتب العمل التى يتقدم اليها كل محتاج وفقير لتمده بالعمل الذى يحميه من وائلة التشرد والضياع .

وقد حاول بالفعل روبرت أوين تحقيق أحلامه هـــذه وذلك بأن قام بانشاء مستعمرة « نيوهارفى » وحاول من خلالها تنسيق العلاقات بين أبنائها وتوفير كافة متطلباتها واقامة النظم التعليمية والرعاية الصحية حتى يخلق بهذا المجتمع نوعا جديدا يقوم على أسس فاضلة توحد المصالح وتزيل كافة دوافع النزاع والصدام بين الفئات ولكن تلك المحاولة لحق بها الفشل وداهمه اليأس لأنه ولا شك قد قام بتطبيق مبـــادىء المساواة المطلقة بين الفئات من حيث الكفاءات وتنكر للحوافز وقيمة الجهود الانتاجية بين الفئات .

وهكذا فمهما لحق بهذا الفكر المثالى من فشل مرة بعد الاخرى إلا أنه قد ترك آثارا فكرية انسانية خالدة بتوجيه انتباه الفكر الى بشاعة الاستغـــلال الصناعى واتجه كذلك الى تمجيد الطاقات البشرية المنتجة ، والارتقاء بوجودها . ونادى بأن انطلاق الفئات من وراء الربح تعد فى مضمونها خطيئة تتسبب فى تدهور الجنس البشرى عامة .

وعليه فكان روبرت أوين ينشد المجتمع الذي يحرر الانسان من اعبائه وعقده لا ليثقل على كاهله باعباء جديدة.

آراء جون ستيوارت ميل الاشتراكية

يعتبر جون استيوارت ميل من قادة المفكرين الاقتصاديين الذين فتحوا آفاق الفكر للاقتصاد الموجه والاشتراكية وان كانت تدعو الى الحرية الانتاجية والمنافسة بصفة عامة وهذا ما يقربه من المدرسة الكلاسيكية حيث الاقتصاد الحر . ومن ثم فمجال بحثنا هذا لا يتسع لعرض كافة آراء ميل الاقتصادية وانما سننتقى منها ما يخص بحثنا هذا من حيث القيم الاجتماعية الاخلاقية التى نادى بها هذا المفكر .

وكانت آراء ميل تتعارض فى مضمونها مع الفكر الاقتصادى الذى كان ينادى بالحرية الاقتصادية من حيث قوانين الانتاج ونظم التوزيع ولكننا نجد ميل وهو يؤكد حتمية التوجيه الاقتصادى من حيث ضرورة توزيع عائد الانتاج بحيث يعود على تلك الفئات التى تبذل جهودها وطاقاتها من أجل تسيير عجلة الانتاج .

وقد أصاغ ميل فى مبادئه فاعلية التنافس وأثرها فى التنمية الاقتصادية وأكد قانون الوازع الشخصى ولكنه وضح تلك النقاط فى الاسترسال نحو ابراز محاسن التعاون وآثاره الخالدة من حيث مدى تقربها من المثل العليا الاخلاقية ، وبالتعاون تتمكن الانسانية من القضاء على مظاهر النضال والتصادم الطبقى وتدفع الفئات نحو العمل المتضامن الهادف الى الصالح العام والرخاء المادى والروحى فى نطاق وجودهم وقد أوجد ميل علاقة وثيقة بين القيم الاخلاقية ومبدأ تحديد النسل وأعتبر أن الأفراد الذين لا يستطيعون أن

يتحكموا وينظموا بين عملية تحديد النسل وبين الموارد المادية المتوفرة لهم بحيث لا يتأتى الى الحياة فرد إلا وكان له القدر المالى الذى يمكنه أن يحقق له حياة سعيدة كريمة تسمو بوجوده عن مظاهر البؤس والحرمان ومثل هؤلاء الأفراد المتصفين بالقصور فى أبعاد التفكير والتقدير يجب اعتبارهم خارجين عن القيم الاجتماعية الاخلاقية ويجب ان يعاملوا معاملة المنحرفين والخارجين عن القانون .

وهكذا يمكننا الاستدلال عن الغاية التى كان يستهدفها « جون ستيوارت ميل » من وراء تلك النظريات والمبادىء وهى ان الارتقاء بالعمل الانسانى عامة يتجه لاشباع حاجاته وغرائزه باتباع سلوك يتصف بالرقى والسمو ويقترن بالقيم الاخلاقية والمعايير الانسانية .

الاشتراكية الفابية

وبصدد الاشتراكية الفابية سنحاول تلخيص أهم أهدافها وما ترمى اليه من غايات عليا خالدة .

فالاشتراكية الفابية تهدف الى بناء المجتمع بما يتفق والقيم الأخلاقية السامية والمثل العليا المتمثلة فى الأخاء والتعاون والحب وتنتقى لها سلوكا خاصا يقودها نحو تلك الغايات ويتصف بالتدرج كما أنها اتخذت لها الشعار الملائم التالى « يجب أن تنتظر اللحظة المناسبة على أكثر ما يكون الصبر مثلما فعل فابيوس وهو يحارب هانيبال ، وان كان الكثيرون قد انتقدوا تأخره ، ولكن عندما يحين الوقت المناسب يجب أن تضرب بشدة كما فعل فابيوس والا كان انتظارك هباء ولا جدوى منه » .

والفكر الفابى فى الواقع لا يتبع مدرسة فكرية معينة وانما يستلهم مناهجه

وفقا للواقع ثم يقوم بتطويرها وفقا لما يراه من الصالح العـــام . وتهدف الاشتراكية الفابية نحو تنظيم المجتمع وذلك بتحويل الملكيات من تحكم الفردية والطبقية الى سلطة المجتمع حتى يضمن بذلك ادارته من أجل صالح المجتمع ، وعلى هذا النحو يتمكن من تحقيق مظاهر العدالة وضمان توزيع المزايا الطبيعيـة المتوفرة على كافة الفئات بتباين مستوياتها .

وكان تعرض الفابية للملكية الزراعية من حيث حتميـــة القضاء على الملكية الخاصـــة للأرض وعلى ما كان يستتبعها حينئذ من استئثار صاحب الأرض على منتجاتها اما بصورة مباشرة أو بصورة ريـع (١) مقابل التنازل عن الامتيازات التى تتمتع بها تلك الأرض .

وفى مقابل الملكية الزراعية تعرضت الفابية الى ادارة رأس المال الصناعى وذلك بابراز المدى البعيد والآثار المثمرة التى تعود بادارة الأموال فى ظل التأميم وتحويل استثمار الأموال التى كان فائضها يعود على أصحابهـا الاثرياء لتصبـح انماطا منسقة منتظمة ، وتكون تلك التأمينات للمرافق العامة الأساسية فى البلاد وان كان من الممكن تعويض أصحابها فى مقابل ما يؤخذ منهم وبهذا تختفى الطبقة العاطلة بالوراثة التى تجنى ثرواتهـا على حساب شقاء الـكادحين ويتحقق تكافؤ الفرص مع أكبر قدر ممكن من المساواة .

وكانت الدعوة للاشتراكية الفابية تستند على نشر الآراء واجراء التغييرات الاجتماعية والسياسية التى تستهدف ارساء المساواة بين الحقوق المدنية وتساوى بين الرجال والنساء خلالها ، وذلك بفتح آفاق المعرفة وتحديد معالم العلاقات بين الفرد والسلطة من كافة مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

---

(١) الريع .. هو ذلك الجزء من الأرض الذى يدفع للمالك لقاء استغلال الطاقات الاصيلة الخالدة للتربة .

ومن ثم فيمكننا الانتهاء بأن الاشتراكية الغايبة كانت غايتهـــا ازالة المتناقضات بين السلوك والمبادىء والقيم السامية التى تعتبر فى مضمونها منبع الكراهية السافرة التى تولد الفرقـــة والانشقاق والتصادم بين الفئات البشرية خلال المجتمع الواحد .

نبذة عن الشيوعية الماركسية

انتهى التفكير الماركسى على أن العامل الاقتصادى هو اساس التاريخ ، وتقول النظرية الماركسية أن من الواجب عدم اعتبار الطبيعة والمجتمع مجرد تجمع طارىء لظواهر منفصلة ومعزولة وانما العكس هو التعبـير الصحيـح عن هذا التلاق ، فجميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية مترابطة ومتشابكة ويقرر الواحد منها الآخر . ونجد التعبير عن هذه العلاقة العميقة الجذور فى قوانين التطور الاجتماعى والطبيعى كما وأن القوانين الإقتصادية هى أساس التطور فى المجتمع من حيث دورها فى تحديد نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الناس ، أى العلاقات فى مجال الانتاج والتوزيع والمقايضة والاستهلاك .

ومن هنا جاء تعبير ليذيين بأن الاقتصاد السياسى لا يعنى على الاطـــلاق الانتاج وانما يعنى العلاقات الإجتماعية بين العاملين فيه ، وبعبارة أخرى أن الاقتصاد السياسى هو علم تطوير العلاقات الاجتماعية ، الانتاجية أى الإقتصادية بين الناس ، وهو يوضح القوانين التى تنظم انتاج الثروة المادية فى المجتمعات الانسانية فى مختلف مراحل تطورها .

ومن هنا يكون الاقتصاد السياسى هو أساس التطور الاجتماعى ومن خلال هذا التعريف نستـــدل على أنه علم تاريخى من حيث اختصاصه بسرد تطور المجتمعات منذ مراحل وجودها كما وانه يعبر عن مدى حساسية هذا العلم من حيث اقترانه بمصالح الفئات البشرية الحيوية .

الأساس النظرى للماركسية

وقبل أن نتعرض لبحث الأساس النظرى للماركسية سنحاول بعرض موجز لآراء هيجل باعتبارها كانت فلسفة تأثر بها ماركس وتحمس لأركانها وأعطت تميزا خاصا لكل ما قدمه ماركس فى الفكر الاجتماعى .

فلسفة هيجــــل

كانت الفكرة السائدة حتى مطلع القرن التاسع عشر هو أن العالم والنظم الاجتماعية لها ميزة الثبات والإستقرار والأزلية ولكن بحلول فجر القرن التاسع عشر أخذت تلك الفلسفة فى الاضمحلال تدريجيا لتحل محلهـــا فلسفة أخرى متطورة تتنبأ بالتغير التدريجى والتطور اللاإنسانى .

وتصدر هيجل لخلق هذا المنطق الجديد وكانت الجدلية هى جوهر منطقه وانتهى بأن :

« التناقض أو التضاد أو النفى هو مصدر كل حركة وحياة ، وأى شىء لا ينطوى على تناقض فلن يتمتع بالحركة والقوى والفاعلية » .

وبالتالى أخذ ماركس فى بحث تلك المظاهر المتناقضة باعتقاده أن التقدم يبدأ منها

النظرية الماركسية

تقوم النظرية الماركسية على ثلاث قواعد أساسية :

١ ـــ التفسير المادى أو الاقتصادى للتاريخ .

٢ ـــ فكرة الصراع الطبقى .

٣ ـــ نظرية القيمة .

أولا : التفســـــير الاقتصادى للتاريخ

وهو تعبير بأن التاريخ الاقتصادى باعتباره يمثل تاريخ العلاقات الاقتصادية المتداولة بين الفئات البشرية ونوع التعاملات فيما بينهم ووسائل الانتاج والتوزيع وهذا فى مضمونه سجل يحوى فى سطوره تصويرا وصياغة لتطور المجتمعات وتشكيل علاقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية (١) .

والمقصود هنا بمادية التاريخ هو اعتباره العـــــامل الرئيسى الذى يسهم فى تطور المجتمع الذى سيكون العامل الاقتصادى أى النمط الذى تسير عليه طرق التعاملات والتبادلات فيما بينهم ، وعليه فان طرق الانتاج فى الحياة المادية هى التى تحدد الطابع العام لتطور الحياة الاجتماعية وتشكيلها ـ فكل نمط من طرق الانتاج المتداولة يكون له طراز خاص من العلاقات الاجتماعية .

---

(١) الحركات الاشتراكية « هارى . و . ليدلر » .

ولم ينته كل من ماركس وانجلز بجعل العنصر الاقتصادى فحسب هو الأساس العام للتطور الاجتماعى وإنما باعتباره الأساس ويكون الهيكل مكونا من الأشكال القانونية والانعكاسات التى تخلقها حركات الصـــراع الفكرى والنظريات السياسية والفلسفة المتداولة وكذلك الفنون والآداب فكلها تؤثر وتتأثر بالعوامل الاقتصادية .

ثانيــا : الصراع الطبقى

لقد افترض ماركس أن الثورة يتحتم وجودها تبعا لوجود تناقض طبقى يؤدى الى الصراع وان الطبقة العاملة يزداد حالها سوءا نتيجة استغلال الطبقة البرجوازية لمقدرات وحقوق الكادحين .

وان هذا الصراع لن يزول إلا حينما تتحقق سيطرة الفئـــات العاملة (البروليتاريا) على أدوات الانتاج والقضاء على الملكية الفردية نهائيا وبالتالى يتحرر المجتمع من كافة أنواع الاستغلال والتمييز والصراع الطبقى .

نظرية القيمة

لقد وضع ماركس نظرية القيمة وعبر عنها فقال « ان العمل هو الأساس الاجتماعى المشترك فى جميع السلع ... والسلعة تكون لها قيمة لأن العمـــل الاجتماعى يتبلور فيها وكبر قيمة السلعة أو قيمتها النسبية انما تتوقف على مدى كبر أو صغر ذلك الأساس الاجتماعى الذى يدخل فيها أو بعبارة أخرى على القدر النسبي من العمل اللازم لانتاجها ، وعلى ذلك فالقيم النسبية للسلع انمـا تتحدد بكميات العمل التى تبذل وتتحقق وتتجسد فى كل منها (١) .

---

(١) ماركس ـ القيمة والثمن والربح

وإذا ما حولنا تحديد القيمة لسلعة من السلع يتحتم علينا أن ندرك مراحل العمل المختلفة التى تمر بها السلعة حتى تخرج الى المستهلك ونتيجـــة تلاعب البرجوازيين فى تلك القيمة والاستيلاء على فائض قيمتها التى هى من حق الطبقة العاملة (البروليتاريا) وهذا ما يتسبب فى خلق الاضطراب وعدم التوازن بين القدرة على الانتاج والقـــدرة على الاستهلاك مما يخلق الأزمات والبطالة بين العاملين .

النقد الفلسفى للماركسية

قبل أن نتعرض للنقد سنحاول تلخيص ما انتهت اليه النظرية المركسية من حيث :

١) جميع الدخول بخلاف الاجور ليس لها ما يبرر وجودها .

٢) لا مفر من الغاء الملكية الفردية بصفة عامة .

٣) لن تتحقق المساواة وازالة المتناقضات الموجودة فى المجتمع إلا بالثورة.

أولا : نقد مفهوم الثورة

ان اصرار ماركس على فكرة الصراع الدموى وحمامات الدم لم تصبح ضرورية من أجل تحرير الشعوب وتخليصها من تناقضات قد تكون فيها .

فمن الواضح ان الانسان لا يثور إلا عنـــدما يجول بخاطره وأعماقه تساءلات لا يجد لها حلا يخلق فى نفسه الاستقرار فيثور لذلك . وهكذا فهو يثور بناء على جهله لأنه اذا ما تعقل يجد لها حلولا من خلال اتزان تفكيره وتعقله لأن الثورة النفسية تستهدف المعرفة والاصلاح ولكن الثورة المادية، وهى

ما ينادي بها ماركس ، هى ثورة التخريب والتدمير والجهل الصادر عن النفس البشرية ولكن لو تأنى الانسان وأدرك قواه العقلية والنفسية والروحية لانتهى الى ادراك ان الهدوء والأتزان والتصرف بعد التعقل هى من دلائل الإرتقاء والتقدم ـ ثم ضد من يثور الأنسان ويخرب ؟ نجد أنه يثــور ضد نفسه وضد أخيه الأنسان ، بينما هناك تجارب كثيرة للتحول والإنطـــلاق نحو مجتمعات الرفاهية والعدل ، الى الإشتراكية والمساواة وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة رائدة فى تلك التجارب فى مراحل انطلاقها السامية .

ثانيا : الصراع الطبقى

تدعى الماركسية بأن هناك طبقتين تتصارعان :

الطبقة التى تملك والطبقة التى لا تملك وانه يجب القضـــاء على الطبقة التى تملك وتكون بهذا دعوة جماعية نحو فردوس منشود فى الفكر الماركسى ولكنه فردوس مخضب بالدماء والاضطرابات، وينتهى الحال بالأفراد الى الأنسياق تحت حكم الجماعة، فيفقدون بذلك شخصيتهم وكرامتهم ويتحجر تفكيرهم .

وتنتهى الحال كما انتهت به الشيوعية فى بعض البلاد طبقة ممتازة تتمتع بسيادة شاملة على كافة السلطات وعلى جميع مرافق الدول وتظفر دون سواهـا بجميع خيرات الدولة ـ يعيش أفرادها فى عزلة عن باقى الشعب لايتخطى أبوابهم الا من سار فى ركابهم وآمن بمعتقداتهم ويعيش باقى الشعب فى رهبة مستمرة تحت قبضة الحزب لا يتمتع إلا بألفاظ رنانة جوفاء عن الحرية والمساواة .

ثالثا : مفهوم الاشتراكية

عندما تتجه الماركسية للتنكر لحق الملكية وحق التوريث فهى بهذا تنكر حقائق نفسية تتعلق بالفرد ذاته وتكمن فى أعماقه منذ وجوده الأول كما وانها

تتنكر لغرائزه وحقوقه .

فماذا سيحل بالفرد ؟ لا شك أنه سيصبح ترس فى عجلة الإنتاج ومجرد ورقة من شجرة كبيرة إذا أصابها الذبول وزالت مصادر استمرارها وحيويتها سقطت واستمرت الشجرة فى نموها الطبيعى هـــذا هو حال الأنسان فى حالة حرمانه من غريزة الملكية وتسخيره فيما توجهه اليه الدولة دون أن يكون له من حافز أو رأى شخصى يشعر عن طريقه بآدميته وكيانه كانسان .

الشيوعية والدين

عندما انبثق الفكر الماركسى يعبر عن مذهب فلسفى يعتمد على جملة مبادىء نراه قد وقف من الدين على العموم وقفة هى فى مضمونها تعبر عن عدم الرضاء واعتباره عثرة تعوق التقدم والأنطلاق بصفة عامة .

فمنذ أن قامت تلك الفلسفة الماركسية على أساس مبدأ النقيض أو التطور وذلك من حيث خضوع كل كائن مادى أو قيم ومبادىء روحية الى ظاهرة التطور والرقى عما هو أدنى الى مراحل عليا فاخذت تدعى بأنه لا يوجد هناك خلود للقيم الاخلاقية فى الحياة الانسانية حيث أن الخـــلود يتعارض والطبيعة المتطورة . بينما من دعائم الرسالات السماوية هى خلود تعاليمها وقيمها وان كانت لها من المرونة ما تتفق وتطور العقل البشرى إلا أنها لا تحيد عن مضمونها الحقيقى وغايتها الراسخة المتكاملة .

ومن هنا وقعت الماركسية فى أخطاء هى فى الواقع نقط سوداء فى تاريخها وذلك بأنها أطلقت صفة العمومية والشمول على كافة القيم والمبادىء فعلى سبيل المثال نجد أن القيم التى تعبر عن الحرية والعدل والمساواة والأخاء والحب ،هى خالدة خلود الانسانية ومقترنة بوجودها المتكامل الهادف الى الكمال ، فالقيم

الانسانية كانت وستظل هي المستويات العليا فى السلوك الانسانى ، والنهايات العظمى لتطور البشرية فى انسانيتها .

وبالرجوع الى تعاليم القرآن الكريم نجد فيه من قيم ومفاهيم لازالت نبراسا تهتدى به الأنسانية وتضيء لها جوانب حياتها المظلمة المعقدة ، فهى قيم لازالت خالدة سامية حتى يومنا هذا لم يصبها الفتور أو الاضمحلال وانما تزداد قوة وفاعلية كلما تعمق الأنسان فى معانيها وتدارك غاياتها الكريمة.

ومن هنا يتضح الفارق الشاسع ما بين الدين والشيوعية من حيث أن دعوى الأول تسايرة الطبيعه البشرية بوجودها المادى والروحى فتقربه من الأعمال الصالحة والتآخى الانسانى بينما نجد الشيوعية دعوة الانقلابات والثورات الحمراء منهجها تقييد الأنسان وانعدام كرامته وحريته فهى أجدر بحياة الحيوانات وأبعد ما تكون عن الصفات الأنسانية الخالدة . ولا يتسع مجال بحثنا هذا لحصر نقدها من حيث القومية والسلطة والمساواة والمستقبل الأنسانى بصفة عامة ولكننا نتتهى بأنه لا يمكن أن تكون الشيوعية فلسفة متكاملة قائمة بذاتها أو تعبر عن الكيان الانسانى لأنها بنت نفسها على المتناقضات لتخرج لنا متناقضات أخرى فى كافة مظاهر وجودها وتعاملاتها وبذلك لم تكن إلا مجرد تعبير عن صراع المفاهيم البشرية التى أوجدها الأنسان نتيجة جهله وقصور تفكيره .

مدخل للاشتراكية العربية

الاشتراكية العربية والوجود الانسانى

من خلال تلك الفصول السابقة نستدل على أن الانسان ما هو إلا كتلة من المشاعر والأحاسيس تصرخ فى أعماقه وتتضارب فيما بينها وتتسبب له فى آلام مبرحة فتعكس آثارها عليه إما فى صورة مادية أو أخرى نفسية .

والانسان تتصارع في داخله مفاهيم متعددة يسعى جاهدا لتحقيق ما تصبو اليه نفسه من آمال وآفاق ، وخلال تلك المحاولات تتحكم فيه عـــدة غرائز ونزعات تلزمه تحقيق مآربها وغاياتها . وكما سبق أيضا أن استدللنا على أن تلك الغايات التي يسعى اليها الأنسان ليس لها حدود مطلقة أو نهايات ثابتة وانما هي تتوقف على النفس البشرية في حد ذاتها ومدى طموحها وقدرتها على ادراك معالم النهايات التي تستقر بها نفوسها المضطربة وتنتهى عندها أحلامهم .

وفيما يختص بتلك الأحلام والغايات فقـــد وفقنا على بعض المحاولات الانسانية التي سعت نحو تحقيقها اما في صور خيالية واما بصورة مادية ناقصة لا تشبع في حد ذاتها النفس الانسانية الطموحـة واذا ما تعرضنـا للاشتراكيـة العربية فأحق لنا أن نتتبع مناهجها وخطاها ومدى توفيقها نحو اشباع متطلبات النفس المتعددة من حيث واقعها المادى والروحى كذلك مدى توفيق أساليبهـا نحو التنسيق بين غايات وسلوك أبناء هذا المجتمع في حدود قدراته وامكانياته المتوفرة .

ومنذ أن انبثقت في الوجود أركان الاشتراكية العربية نرى أنها قامت على أسس فلسفية متطورة ارتقت بها حتى تمكنت من أن تتبوأ مكانا بارزا في مجال الأنطلاقات الفلسفية العالمية متخذة لهـا سلوكا خاصا في الفكر وفي الحيـاة وفي التطبيق .

وتمكنت تلك الفلسفة من أن تبلور كثيرا من مراكز القـــوى ومصادر الطاقات التي كانت مستترة في بيئتنا المصرية وجعلتها شفافة واضحة يسهل للعقول استدراكها والكشف عن مواطن وجودها وسبل استغـــلالها من أجل الصالح العام .

وقد اعلنت الاشتراكية العربية من خلال سلوكها على أن كل منهج من

مناهج تكوينها يرتكز على الحرية الفردية ومن أجل الفرد نفسه وبالتالى من أجل المجتمع بأسره كما وانها تداركت منذ انطلاقها حتمية تحرير الانسان تحريرا كاملا من سلطان العلم المحدود ، والاخلاق التقليدية المستوردة والتاريخ الذى تكتب سطوره بأيدى مزورة .

تداركت الاشتراكية العربية ان الانسان دائما فى حاجة الى قيم ومعايير تتحكم فى احساساته وعواطفه ، وبالتالى تؤثر على سلوكه وتكوين ملامح متطلباته الأساسية ومن هنا عبرت الاشتراكية العربية عن مقاييس تنبثق من خلال أحاسيس خاصة هى فى مضمونها أرقى وأسمى من المعارف الشخصية والامكانيات الفكرية المحدودة ، أو الادراك الذاتى الفطرى ، وانما وجدت هذه الاحاسيس لترتبط بين جوهر الموجودات الى حيث وجودها المادى أو الفعلى الحقيقى وتستند فى هذا الارتباط على مقاييس سامية ترتبط والمبادىء الانسانية والقيم الاخلاقية التى تعبر عن الجوهر السامى للوجود الانسانى عامة

وعليه فالاشتراكية العربية جاءت تعتمد أولا وقبل كل شىء على التجربة والتاريخ والملاحظة العلمية والدراسات الميدانية . فجاءت تعبر عن تجارب هى مجموعة من الأفكار تتولد فى الفكر الانسانى وتتكون من خلال دائره معارفه الخاصة ومدى احتكاكه بمجالات التعامل المختلفة وتشتمل فى مضمونها على عناصر العلم والفن والقيم الدينية ، ودراسة لطبيعة احوال البشر بتحليل دقائق تفاصيلها . فتبلورت وكأنها تعبير صادق عن ماهية الانسان وكيف يتأثر ويؤثر فى البيئة الحاوية له .

ومن هنا جاءت المرونة فى اشتراكيتنا فهى تستهدف الرقى الانسانى فلا شك أنها ستقترن بالعلمية التى هى السبيل الوحيد للوصول الى ارقى المستويات وأكثرها تقدما وخصوبا ولكن ايماننا بالاشتراكية العلمية كأساس فى مذهبنا الاشتراكى لا يعنى هذا اعتبار جميع أركانها وأسسها وقواعدها مجرد قوانين

ثابتة متجمدة لا تقبل الحركة والتطور وانما لها خاصية الانسجام مع اختلاف الأوضاع باختلاف الزمان والمكان ومع ما يفرضه الواقع عليها وتجبرها الظروف لانتهاج منهج معين ولا تواجه الواقع بفكر ونظريات مغلقة يقيد ما لديها من قدرات وامكانيات .

فاشتراكيتنا العربية لم تنبثق الى الوجود مقترنة بالأفكار والمذاهب الخيالية التى تسمو بأصحابها عن حقيقة وجودها المادى وتغاير الفترات الواقعة عليها وتجعلهم يعيشون فى عالم الأحلام والتخيلات والتمنى كما وانها لم تأت لتقيم نفسهـــا على فلسفات مادية بحته وتهدد القيم الروحية التى هى جزء لا يتجزأ من الكيان الانسانى .

فجاءت اشتراكية تستهدف تكامل كل من الجسد والروح كلاهما فى نماء متوافق وان يتم الاصلاح بالاقتناع والتراضى لا بالعنف أو الأرهاب ـ جاءت اشتراكية تهدف لمجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع يضمن خلق الحياة السعيـــدة المتكاملة وارساء قواعد الديمقراطية والحرية والمساواة فجاءت تجربة ضخمة رائدة متكاملة لم يسبق لها مثيل فى الدول النامية الحديثة عـــبرت عن وجودها بمذاهب واضحة صريحة تستهدف التقدم المنشود .

الإشتراكية والحرية

الحرية فى مضمونها العميق ومعانيها السامية ما هى الا تجسيد وتعبير صادق عن حقيقة النفس البشرية وهى ما تنشده منذ وجودها ، ومحور تفكيرها من حيث حساسية وجودها من كافة المجالات الفكرية والاجـــتماعية والسياسية والاقتصاديه والعقائدية .

وبالرجوع الى حقيقة الانسان نجد أن حريته تتبلور فى مدى ابراز قيمة

وجوده وفكره كذلك على مدى تحرره من كل قيد والابعاد التى تسمح له بالانطلاق والعمل .

فالانسان يحتاج فى وجوده الى حريته لكى يدرك كيانه وذاته ، وقيمة هذا الوجود هى مقدار انطلاقه من وراء بحثه عن حقيقته والقضاء على عبودية الذات — وهكذا فالحرية هى مقدار ما يصل اليه الفرد من حيث اعلاء سلطته الشخصية والروحية والفكرية وسيادة العقل والوجود الانسانى على باقى الموجودات المحيطة به .

والمشكلة التى دائما وأبدا يصطدم بها الانسان هى الكيفية والوسيلة التى تمكنه من الحفاظ على تلك المعانى وتوافر معالمها فى نطاق وجوده . فليس هناك معنى للحرية ، والانسان مقيدا ومكبلا بالقيود السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فهذا مما لا شك فيه ما يهدد من قيمة الشخصية الانسانية والقيم الاخلاقية والتعاليم السماوية .

ومن هنا جاءت الاشتراكية العربية تمجد الحرية فى أعمق معانيها وتجعلها مقترنه بالانسان باعتباره كائنا ماديا والروح تدلل على وجوده . وتبعا لكون النفس البشرية قد تنقاد من وراء الوجود المادى والروحى بلا تروى أو تعقل وتصبح الفوضى بديلا عن معانى الحرية السامية .

ولهذا فقد عمدت الاشتراكية العربية الى احترام كافة تلك المتطلبات المادية والروحية ومنحتها آفاقا متباعدة تسمح لانطلاق الشخصية الفردية ولكن فى نفس الوقت وضعت القيود الحابكة والضابطة للسلوك الانسانى لتحول دون انحرافه عن مبادىء الحرية الخالدة من حيث عدم السماح باستغلال الانسان لأخيه الانسان .

الاشتراكية والتطور

الاشتراكية العربية تؤمن بالتطور ، أى تؤمن بحتمية الانتقال من مرحلة متأخرة الى مراحل أخرى أكثر تقدما وازدهارا . ولكنهـا لا تواجه تلك الظاهرة بأفكار متجمدة وآراء صلبة كبعض النظم والمذاهب التى انتهت بادعائها بأن ما تدعو اليه ما هو إلا سدرة المنتهى بالنسبة لتطور النظم الانسانية .

فالاشتراكية العربية تعبر عن نفسها بنظام عادل ترتقى به الانسانية وتتطور من مراحل تسود فيها مظاهر الاستغلال والاحتـكار والانعزال والسلبية والتخلف ، الى آفاق تعلوها يسود فيها الاستقرار والتفاعل الاجتماعى الايجابى والعدالة الانسانية ، تزول فيهـا مظاهر الانعزال من وراء أسوار التخلف والتقوقع ، وأنها تندد بالجمود والسلبية أمام مظاهر الاستغلال وتدعو الى تمجيد الحرية والمساواة والأخاء الاجتماعى .

اشتراكية تؤمن بأن التطور لا تتبلور معالمه إلا بتفهم الانسان حقيقة نفسه وحقيقة متطلباته ومشاعره ودوافع سلوكه وهذا بالتالى لن يتحقق إلا بتطور الانسان وارتقائه وتحرره من عبودية الجهل والتخلف والانكماش .

وعليه فالتطور الحقيقى ما هو إلا الانطلاق نحو مزيد من الكمال بمزيد من الادراك والفهم حتى تتمكن الانسانية من الوصول الى الجوهر الذى تتطلع اليه وتشعر من خلاله بالاستقرار والرفاهية والكمال .

الإشتراكية والمساواة

لقد وجدت الانسانية فى حالة من المساواة من حيث العقـل والروح والنفس وبالتالى تلاقت حول جوهر أصيل من حيث الوجود الانسانى عامة .

فالاشتراكية العربية قد تعرضت لتلك القضية بتبسيط عادل ودراسة مستوفاة ولأعمق معانى الانسانية وجوهر وجودها الحقيقى والسنين التى تسير الحياة على منوالها .

فلا شك أن مبدأ التسوية ليعد من البواعث الأساسية للحياة المتكاملة حيث أنها تهدف الى توسيع أبعاد النمو الفردى وبالتالى التقدم الاجتماعى ، وفى نفس الوقت قد تؤدى الى حالة من الانحلال الفردى والأنحطاط الاجتماعى اذا ما تدارك مفهومها على نمط خاطىء شاذ يتنافى والقواعد الاخلاقية السامية فلو تعرضنا لمضمون كلمة « المساواة » فهل هى تعنى مجرد المساواة المطلقة ، اللامحدود لها أم هى تعنى المساواة فى الحقوق فحسب أو فى الواجبات الانسانية بصفة عامة لا شك أن هذا السؤال قد يؤدى بنا الى عدة تساءلات عن غاية تحقيق هذا المبدأ فى نطاق المجتمع وما هى الحدود التى يجب أن تنتهى اليها وتصل الى أبعادها مع العلم بأنه لا تتوفر لدينا مقاييس للعدالة أو المصلحة العامة أو الخير العام .

ووفقا لعدم توافر تلك المقاييس تصبح قضية المساواة هى مشكلة الأنسان .

واننا لا ننكر أن المساواة حق من حقوق الانسان فى نطاق البيئة الاجتماعية الحاوية له ولكن هل تلك المساواة من حيث وجوده المادى أو مساواة من حيث المفاهيم والقيم الروحية بصفة عامة ?? .

هذا هو محور تساءلنا .

ولنا أن نلقى الضوء على حقيقة الوجود الانسانى ومدى شرعية تحقيق مبدأ المساواة بالنسبة له .

ابتدأت الحياة الأنسانية بمساواة مطلقة باعمق معانيها وأسماها ، وتطورت السنين وتعاقبت القرون وأصبحت المساواة لا تتحقق معالمها إلا فى صورة مغلقة تتبلور فى نطاق كل طبقة على هداها ويتبع هذا أبعاد معينة للتفكير البشرى

فى حدود تلك الطبقة .

وعليه فأصبح هناك مفاهيم تلتقي عندها الفئات من حيث تطلعهم الاجتماعى نحو السعادة والرفاهية والاستقرار المادى والروحى ، ومن هنا نصطدم بحقيقة رهيبة من حيث جوهر تلك المفاهيم فنجد أنها تختلف فى الأبعاد والمظاهر من فئة لأخرى وبيئة لأخرى فكل فئة تعيش فى حدود طبقتها ترفـــع شعارات ومفاهيم بقدر امكانياتها وقدرتها التى تمكنها من تحقيقها وتوفير مظاهرها .

وخلال هذا الصراع نجد تلك الفئات المحرومة لا حرية لها ولا مساواة إلا فى التطلع والتمنى ، والواقع يحد من تطلعاتها ويكبت من أمانيها ويشل من طاقاتها وقدراتها نحو التحرر من قيود الطبقة الحاوية لها .

ومن هنا جاءت الأشتراكية العربية بفلسفة خاصة آمنت بمساواة البشرية من حيث القيم والمفاهيم والمتطلبات الأساسية وجودها ، واستنكرت تلك القيود التى تحد من تطلعات الفئات المحرومة وجاءت بمفهوم خاص للمساواة من خلاله يكرم الفرد ويحد من الأستغلال ويحترم الغرائز والنزعات وتوفق بين هذا كله وامكانيات الدولة فجاءت المساواة : —

١ — تسمح بحرية التطلع وفقا للغرائز الأساسية الكامنة فى النفس البشرية وتصرخ فى أعماقه من أجل اشباعها .

٢ — آمنت بالمساواة فى الحقوق الطبيعية البشرية من حيث الحفاظ على الانسان من آلام المرض وحرمان النفس وحقه فى الإستقرار المادى والروحى .

٣ — تحترم ما فى النفس من حب التملك التى تعتبر من الغرائز التى وجدت منذ خلق الإنسان وانما بشرط ألا تتعدى على حريات الآخرين أو تستغلهم .

٤ — آمنت بأن ممارسة التسوية قد تؤثر فى التقدم أو الإنحطاط وهذا بالتالى يتوقف على نوع هذه التسوية ، وعليه فقد راعت عند اعلاء راية المساواة أن يكون هناك تقدير لحكمة الخالق من حيث خلق الناس متفاوتين فى أحوالهم

واستعداداتهم وطاقاتهم وميولهم .

فمنهم ذوى القدرة على العمل الخلاق ومنهم الخاملون ، وتتفاوت درجات الذكاء فيما بينهم من حيث العلم والمعرفة ، ومنهم من يقبعون ويستسلمون للجهل والانعزال ومنهم العباقرة ومنهم العاديون .

وفى قول الله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

وهكذا فالمساواة فى الإشتراكية العربية دعوة تقترن بالعدالة الاجتماعية لا تستهدف ما هو خارج عن حدود وامكانيات الطبيعة البشرية ، وإنما تبغى التساوى فى كافة الفرص التى تفاوتت تبعا لظروف غير عادية وأوضاع شاذة وهكذا جاءت الاشتراكية العربية تؤمن بأن الافراد تتساوى جميعا من حيث حقوقهم الطبيعية واحتياجاتهم الأساسية ، وجعلت هناك المفاهيم والقيم لحياة أكثر رفاهية ولكنها فى منأى لا يصل اليها إلا من تحكم فى سلوكه وغرائزه وراعى ضميره فى سلوكه ، وآمن بالعمل المسند اليه وأظهر احترامه للانسانية بصفة عامة .

ويجب ألا يبعد عن أذهاننا بأن تلك العبارة التى تفيد بأن جميع الناس يخلقون سواسية من حيث الواجبات والحقوق لا يمكن اعتبارها قاعدة عامة وانما فى واقعها أن الناس جميعا سواسية أمام الله وأن أرواح الناس لها نفس المرتبة ونفس التقدير عند الله سبحانه وتعالى ، وعلى كافة المجتمعات البشرية أن تحترم هذا المخلوق الذى صنعه الله ـ ولكن اذا ما كان هناك تعميم فى تطبيق مضمون تلك العبارة فسيكون هناك مجال خصب لوجود أولئك العاجزين والمنافقين والمتطفلين .

الاشتراكية من حيث السلبية والايجابية

الأشتراكية العربية كفلسفة انطلقت لتسمو بالوجود الانسانى من كافة مظاهره ولا شك أنها قد جعلت لها قيما سامية تحتم على تلك البيئة الأجتماعية

أن تتقرب نحوها بالقدر الذى يحقق غايتها ومفاهيمها التى تستهدفها .

والاشتراكية بما لديها من قدرات على اعطاء صفة خاصة للسلوك البشرى ومظاهر التعاملات المختلفة فانها قد اتخذت لها موقفا واضحا صريحا من حيث سلبية السلوك وايجابيته وجعلته من الظواهر التى تعتبر مقياسا لمدى فاعليتها ونجاحها من قبل الجماهير .

والسلبية فى هذا المقام تعبر عن تلك المواقف الجامدة التى قد يتخذها بعض الأفراد كظاهرة من الظواهر التى تنظم علاقاتهم ووجودهم بصفة عامة سواء من الناحية الاجتماعية أو الأقتصادية أو السياسية حيث أنهم يتقبلون ما يفرض عليهم من قوانين ونظم لا يقدمون شيئا إلا طاقاتهم المادية وأن لم تكن خوفا من العقاب فقد تكون مجرد السعى وراء متطلباتهم الأساسية من مأكل ومسكن وملبس .

ولكن فى الواقع فالاشتراكية العربية تدعو الى الإيجابية بأعمق معانيها وأوسع حدودها فهى تنشد من تلك الفئات الإستجابة اليها عن ايمان وتعقل وتفهم لأصولها وغاياتها الإنسانية السامية ـ تطلب المشاركة الفعالة بالنقد الذاتى البناء والتعبير عن الارادات باقصى حدودها لأنها ستقابل حينئذ بالاحترام والتقدير إذا ما كانت صالحة تستهدف الصالح العام واما فقد تقابل بالمناقشة الحرة حتى يقف صاحبها على نواحى قصور ادراكه ويكمل مظاهر نقصه وثغرات تفكيره حتى يصبح هناك التحام فكرى وعقائدى بين الفئات ويتم توحيد الثغرات التى بينهم ومواطن الضعف مما لا يمكن بعض الدخلاء المخربين من بث سمومهم وعرقلة الأنطلاق الجماعى نحو الرخاء والرفاهية والكمال .

الإشتراكية العربية والحوافز

مما لا شك فيه أن الحوافز بمظاهرها المتعددة تعتبر استجابة واقعية لطبيعة النفس البشرية تبعا لما تتحكم فيها من نزعات وخلجات وغرائز متباينة تتصارع

فى أعماقها وبالتالى فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن تنكر آثارها البعيدة أو تقلل من شأنها من حيث مدى تأثيرها الفعـــال على السلوك البشرى بصفة عامة .

وعليه فالحوافز تعتبر من القضايا الهامة من حيث بحثها فى النظم الاشتراكية التى تستهدف فى مضمونها مجتمع الرفاهية والعـــدل والكمال ولن تتحقق مظاهرها الا بتشغيل كامل لكافة الطاقات المادية والبشرية المتوفرة لدى المجتمع لأبعد حدود لها وأقصى قدرات متوفرة لديها .

ومن هنا فالحوافز فى مضمونها تعتبر قوة انتاجية دافعة تحت الفئات العاملة على الانطلاق ورفع مستويات الانتاج وانتهاج سبل الابتكار والتفنين والابداع بما يعود عليهم بالرفاهية والكمال .

وهذا ما تصبو اليه النفس البشرية عامة فلكى تزيد القدرة الشخصية للعمل ينبغى تطبيق نظام واسع من المميزات التشجيعية بصوره المختلفة التى تتغلغل فى أعماق النفس البشرية وتثير من انفعالاتها ما يدفعها على الأنطـــلاق نحو العمل بأسمى معانى التضحية ونكران الذات والاستقرار .

وتختلف الحوافز من مجتمع لآخر تبعا للنظم التى تتداول من أجل تنظيم العلاقات الانتاجية والاستهلاكية فى المجتمع ، فقد تكون فى وجودها معبرة عن حوافز سلبية أو حوافز ايجابية .

والحوافز السلبية تعتبر منوا لأخطار الجسيمة التى تهـــدد كيان العمال فى المجتمعات الرأسمالية والتى يصبح فيها الخوف السلبى هو الحافز على العمل من أجل ضمان الاستمرار فيه حفاظا على ما يقيم أوده ويقيه شر الجوع والحرمان الشامل ، وتلك الحوافز السلبية بمعناها اللاإنسانى تتصدر النظم الرأسمالية والتى تعتبر السلاح الذى يلوح به صاحب رأس المال ليجبر الفئات على العمل حتى يزيد الانتاج وبالتالى تزداد ارباحه وتتكدس ثرواته ويساعده على فاعلية تلك

الحوافز وجود جيوش من العاطلين ينتظرون من تنهار قواه وتتشتت طاقاته وقدرته على العمل فى ظل هذا الاستعباد ليتهافتو على احـــلال مكانه فى ظل السخرية . . وبهذا لن يكون هنـاك حاجة الى صاحب رأس المال للتفنـين فى اغراء العامل أو حتى مجرد اقناعه بهذا العمل أو الألتجاء الى الحوافز الايجابية من زيادة فى الأجور أو المكافآت الأنتاجية . . . الخ .

أما الاشتراكية العربية فهى تتجه الى الحوافز الأيجابية بصفة تلقائية تبعـا لخصائصها الانشائية الكريمة الخالدة فهى تؤمن بأن سياط الجوع والحرمان والارغام بالقوة ووســـائل الارهاب لن تكون فى يوم من الأيام الدعائم التى تقوم عليها العجلات الانتاجية فميادين العمل لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تصبح معسكرات تساق اليها الفئات العاملة تحت رهبة الجوع والحرمان وانما لها شعورا غريزيا نحو الحرية الفردية تكون شعار الرباط المقدس الذى يربط ما بين العامل وعمله حتى يصبح العمل باعثا على السرور فى نفوسهم بدلا من أن يكون عبئا وثقلا تنوء تحته ظهورهم .

فالاشتراكية العربية تتجه لخلق روح الابتكار ونكران الذات فى نفوس العاملين بعـد أن تضمن لهم أسباب الحيـاة ، وتطـرد عن أذهانهـم كل شعور بالقلق بالنسبة لمطالب المستقبل المادية ومن حيث تأمين المستقبل بخلق الاطمئنان التام من حيث المعيشة فهى قبل أن تجبره على العمل تضمن له احتياجاته اليوميـة له ولأسرته وبهذا تختفى الرغبة وتسلط سلطان جمع الثروات وتكديسها ويتجه كل فرد نحو التمتع بمباهج الحياة بدلا من الصراع لأجل توفير فرص الحياة .

ومن هنا تنبثق الى الوجود الرغبة فى الاجادة والابتهاج فى العمل الخلاق والطموح الى الارتقاء والتحسن والاهتمام بكسب احترام المجتمع.

والاشتراكية العربية فى نفس الوقت لا تترك ثغرات فى نظمها يمكن أن يتسلل عن طريقها بعض الكسالى المقامرون أو المتطـــفلون فنظم المكافآت والأجور لا يمكن أن تكون مجرد اشباع احتياجات الأفراد بعد المساواة فيما

بينهم من وسائل الراحة والخدمات التعليمية والصحية المجانية الى غيرها من الخدمات العامة واصبح بهذا نظام تحديد المكافآت والأجور أكثر ارتباطا بانتاجية كل عامل من العمال هذا بعد انطلاقهم نحو العمل من خط متساوى وفرص متكافئة .

وأصبحت التفرقة في جداول الأجور تبعا لمدى المهارة والضمير فى العمل والقدرة على الاستمرار فيه وبهذا يصبح كل فرد فى مجاله يطمح فى الوصول الى مستويات عليا من المهارة لتحسين مستواه فى العمل لما يترتب عليه زيادة فى أجوره التى تفتح له آفاقا أكثر اشعاعا وأبعد حدودا للتمتع بمباهج الحياة ومظاهرها .

الاشتراكية العربية بين المادية والروحية

عندما نسترسل فى الحديث عن الاشتراكية فاننا لا نهدف الى مجرد تنسيق بعض الكلمات لخلق تعبيرات جذابة أو لمجرد جذب العقول نحوها وخلق استجابة مصطنعة من قبل الأفراد حول مبادئها وأركانها .

ولكننى انتهج فى بحثى هذا عرض مناظرة عامة ما بين احتياجات التطبيق الاشتراكى وأركانه ومدى التقائه والآمال العريضة للبشرية ، والحتمية التاريخية التى فرضتها الطبيعة المتغيرة للانسانية على مر السنين والأجيال ـ كذلك على مدى استعدادها لأصالتها وفروضها من خلال تطلعات الجماهير الواسعة نحو مجتمع أفضل ، مجتمع الرفاهية والعدل والكمال .

فالاشتراكية وان كانت مجرد نظام اجتماعى اقتصادى سياسى إلا أنها قبل أن تكون هذا فهى فلسفة عميقة تستجيب لكل من جانبى الوجود الأنسانى عامة من حيث واقعه المادى والروحى أى أنها فى حد ذاتها فلسفة متكاملة أصيلة مستقلة لها أركانها وقيمها ومفاهيمها ـ تمتص من الفلسفات المثالية كل ما يمكن جعله واقعيا وتستجيب له الانسانية ثم تتجه الى الفلسفات الواقعية المادية وتتفاعل معها وتنتقى من أسسها وقواعدها وقوانينها كل ما يقبل الحركة والتطور ثم

تدخل عليها من التعديلات ما يفرضه عليهـا الواقع بتقاليده ومفاهيمه وتجـاربه المتوارثة وظروفه المتغيره وضروراته المادية وحوافزه الروحية والمعنوية .

ومما لا شك فيه أن الانسان قـــد يعيش فى دوامه من الانفعالات والاضطرابات طالما أنه لا يفهم جوهره والسبل التى تؤدى اليه ـ كذلك اذا ما اتجهت الانسانية نحو تفسير الموجودات المادية فحسب فانها ولا شك ستقع فى عدة تناقضات وتنتهى بها الأوضاع الى الضلال والفوضى فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن تصبح الحياة المادية هدفا فحسب وانما يجب أن تقترن بالكيان الانسانى الذى هو جوهر الانسان الروحى والعاطفى ، وتنعكس عليه اصالة الفكرة الالهية فالانسان له من الوجدانات الخالدة ذات خصائص معينة ومطالب ذاتية تلزم وجود اساليب تتفق وهذه الوجدانات والاحاسيس فاصالة الفكر الاشتراكى العربى ينبع من كونه فلسفة تعبر عن النفس البشرية وتستهدف تطوير شخصيتها ووجودها تطويرا كاملا قائما على دراسة علمية للطبيعة البشرية وتقدير ما لها من غرائز ونزوات ومشاعر وأحاسيس ومتطلبات تستتبع هذا التكوين .

وعليه فالاشتراكية العربية لا تنشد مجرد الاسترسال فى أقوال خيـــالية بعيدة عن الواقع وانما تمزج ما بين المثالية والواقع وتظهرها معا فى بوتقة الحياة الواقعية لتخرج لنا صورة فريدة متكاملة تعيد الأمل لكل ممن قضى عليهم اليأس والجمود لأنها تؤمن بأن الحياة لا تزال قادرة على أن تبدأ من جديد من خلال المنطق والتفـكير السليم الذى على أساسـه يمـكن التعرف على ظروف المجتمـع وأوضاعه فتزيل ما يعوق انطلاقها وتنسق بين عوامل التقدم المتباينة حتى تتمكن من تحقيق غاياتها الانسانية ويتمكن أبناءها من الإرتقاء والإنطلاق نحو مجتمع الرفاهية والعدل

وهكذا فالاشتراكية العربية هى آخر مطاف الصراع الأنسانى وما وصلت إليه الانسانية نحو تحقيق نظام أفضل وحياة كريمة .

المراجع

١ — الحركات الاشتراكية | تأليف هارى و. ليدلر
ترجمة الاستاذ محمد ماهر نور

٢ — علم النفس — تأليف الدكتور عبد العزيز القوصى

٣ — الماركسية السوفياتية — تأليف هربرت ماركوز

٤ — علم الاجتماع — للدكتور محمد عاطف غيث

٥ — العلاقات الاقتصادية الدولية — للدكتور محمد لبيب شقير

٦ — الحرية — تأليف جون ستيوارت ميل

٧ — السلطة والفرد — تأليف برتراند راسل

٨ قادة الفكر الاشتراكى — للدكتور جلال حسن صادق

٩ — تطور الملكية الفردية — للدكتور أحمد محمد غنيم

كتب ظهرت للمؤلف

١ ـ عقيدتنا الثورية بين النظـــرية والتطبيقية

« الدار القومية »

٢ ـ الصراع الفكرى بين المــادية والروحيـــة

«دار لوران للطباعة والنشر»

كتب تحت الطبع

١ ـ الدولة الاخلاقية

٢ ـ « المتاهة » قصة اجتماعية هادفة

٣ ـ الرجل والنمـــل قصص صغيرة

الناشر

دار لوران
للطباعة والنشر

٤٨ شارع ابيبو باكلنية . ت : ٣٢٠(١)

ص
٢٥